الفصل الثاني

الحقيقة والخيال

«لا أُزكي نفسي، ولا أدعي العصمة، فالعصمة للرسول...، ولا أقول إني كامل، ولكن أقول: إني أحرص دائماً على أن لا أنطق بغير الحق».

علي الطنطاوي – ذكرياته: ٣/١٧٢

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثاني
الحقيقة والخيال

أولاً: في البدء:

ماذا تقصد الدراسة بـ (الحقيقة) و(الخيال) هنا؟ وَلِمَ استُعمِلَتْ هاتان المفردتان دون غيرهما؟.

المقصود بالحقيقة هنا: الصدق، وآثرت الدراسة لفظة (الحقيقة) لأنها أعم وأشمل وأدلّ على موافقة الواقع من لفظة (الصدق) المجرّدة؛ لأن من الصدق ما يكون باطلاً حين يُظهر المتكلم أو الكاتب بعض الحقيقة ويصمت عن بعض فيتوهم السامع أو القارئ شيئاً مخالفاً للواقع. والحقيقة – كما أحسبها – لا تكون باطلاً ولاكذباً أبداً، لأنها كل شيء أو لاشيء. وقد يحتال إلى إبرازها ونشرها بالدهاء والحيلة والمكر، ولكنّ ذلك لا يضرّ في دلالتها ولاقيمتها.

أما (الخيال) فلفظة تثير في النفس تداعيات عريضة لتعدد استعمالاتها وتداخل دلالاتها بصورة كبيرة، غير أن التحديد كفيل بزحزحة هذه الإشكالية عن أُفق الاستعمال الخاص بهذا الفصل، والمراد بها هنا: مخالفة الواقع، أي نقيض (الحقيقة). ولم يستعمل الباحث لفظة (الكذب) لأن (الخيال) بالمعنى السابق فيه الدّلالة على المخالفة للحقيقة والواقع بالمعنى الواسع، سواء أكانت تلك المخالفة متعمَّدة أو غير متعمدة، و(الكذب) في العادة لا يستعمل إلا في حالة التعمّد والمخادعة، ولذا فهو مستهجن ومذمومٌ دائماً.

وقد أبقيت مصطلح (الحقيقة) مقابلاً للخيال، لطبيعته المثالية. أما هل تتَحقق (الحقيقة) أولاً؟! فشيء آخر. وسوف يأتي بعد ذلك استعمال مصطلح (الصدق) بدلالته النسبية في مجال الدرس. وهذان اللفظان – فيما أحسب – أقرب إلى التعبير المباشر والمناسب لطبيعة البحث العلمي، وأبعد في الوقت نفسه عن الغلظة والحدّة والنَّمطية.

وأعتقد أن قضية الفصل أو تساؤلاته باتت مكشوفة الآن؛ إذ تودّ الدراسة الوقوف على الحقيقة في ذكريات الشيخ علي الطنطاوي، ومدى تمثيل الذكريات للعالم الحقيقي الذي عاشه صاحبها، ودرس قدرة الكاتب على الحياد في تناوله لسيرته في الحياة، وإنصافه لذاته وقارئه بذكر ما له وما عليه بلا تزيُّد وادعاء أو مبالغة في التَّستر. والحق أن مثل هذه الدراسة ليس باليسير إجراؤها، وليس باليسير – أيضاً – الاطمئنان التام لنتائجها!! لأسباب كثيرة، منها ما يتعلق بفن السيرة الذاتية عمومًا، ومنها ما يمس موضوعنا هنا (الطنطاوي – كتاب الذكريات) على وجه الخصوص، ويمكن أن نشير إلى بعضها:

١. أننا نتعامل مع نصوص لها طبيعة الفن وإن طالبناها بموضوعية المؤرخ وحياديته.

٢. أننا نتعامل مع متغير شديد التحول يستعصي على التحديد والتأطير، وهو الإنسان: الذي يتعسر علينا التنبؤ بأفعاله التي ينشئها، أو ردود الأفعال التي يصدرها تجاه الأشياء والأحداث؛ ولأن جزءًا كبيرًا من الصدق والخيال مرتهنٌ بأشياء لا يمكن قياسها.

٣. أن الباحث لم يعاصر تلك الحياة ولم يتصل بها إلا بعد أن سكن ضجيجها، ولم يخالط صاحبها في مرحلة أو فترة من فتراتها، فضلاً عن مخالطته في جميع الأوقات والظروف والمراحل. ولو تحققت تلك الصفة فإن المخالطة تتعدد وتتنوع، فهناك مخالطة الرفيق لرفيقه في السّفر، والزميل لزميله في العمل، والصديق لصديقه في الحياة، والأخ لأخيه والابن لأبيه في الأسرة والمنزل، والتلميذ لأستاذه في المدرسة... إلخ وكل مخالطة مما سبق نوعٌ مختلف يكشف جانباً من جوانب الشخصية واهتماماتها ومكامن قوتها وضعفها.

٤. ولصعوبة التأكد مما يرد من أخبار وأحداث ووصف وشهادات تاريخية.

ولكن ذلك كله لا يمنع من إجرائها إذا توافر لدى الباحث العوامل المعينة والمساعدة على رصد/وصف الحقيقة والخيال ولو بصفة تقريبية. وتلك الأسئلة التي طرحتها الدراسة آنفاً تنفرج رغماً عنها لتفضي بنا إلى تساؤل أعم وأشمل عن: طبيعة

الصدق الكلي الخالص ووجوده في آداب البحث عن الذات بصفة عامة أو أدب السيرة الذاتية بصفة خاصة.

ويبدو الجواب أول وهلة ميسوراً وبدهيًّا، فمن يتحدث عن نفسه يملك حقيقة ما يتحدث عنه، ومن يملك الحقيقة يصبح أقدر على تسجيلها وعرضها ممن لا يملكها. فكاتب السيرة بهذا المعنى أكثر إلماماً بدقائق حياته، وأشدّ إحساساً بنبضات قلبه، وبدوافع حركاته ونوازع تفكيره وموقفه من العالم المحيط به. وهو دون غيره أكثر وعياً بتطورها من ناحية ووحدتها من ناحية ثانية؛ أليس هو ذاته المؤلف والبطل والممثل في وقت واحد لمسرحية الحياة.

ثم إن القدرة على التعبير عن التجارب الروحية لا تتوافر لإنسان ما من الناس كما تتوافر لمن يعانيها؛ فهو وحده القادر على الكشف عن شدّتها النوعيّة، ووصف الفروق الدقيقة بين أطوار التجربة الواحدة وتلوينها بألوان لا نهاية لتدرجها. وفي هذه التجارب الروحية تتلخص حياة الإنسان بمعناها الصحيح؛ لأن بها وحدها يتميز الفرد الواحد من الآخر.

هذا بالنسبة للتجارب الداخلية، وهو في حياته الخارجية ليس بأقل قدرة؛ لأن حياة الإنسان كالبؤرة الضوئية تتجمع فيها أشعَّة يكاد يكون من المستحيل على من هو خارجها أن يتبين مصادرها، أو يحصر مداها، أو يدرك أثرها ومقدارها، أو يستوعب ما لها وما عليها، فإن لبعض تلك الأشعّة سُبلاً ملتويةً معقدةً، وللآخر منها مسارب خفية لا تستبين للناظر إلا عند أطرافها البعيدة أو لا تكاد تظهر إلا لدى طرف واحد، هو المكان الذي تنتهي إليه؛ أي إلى صاحب الحياة التي تكونها هذه الأشعّة.

وكل هذا يؤكد جانب (الحقيقة) في السيرة الذاتية، فيكفي من يصف حياته أن يكون أميناً في وصفه، مخلصاً في نقل الحقيقة، دقيقاً في بيانها، لا تخدعه الأثرة، ولا يجور في سبيل الغرور كي يقدم لنا صورة صادقة كاملة لهذه الحياة التي عاشها، ولما عاناه من تجارب روحية، وما تنقل فيه من أحوال، وما مر به من أطوار[1].

---

(١) ينظر: د. عبدالرحمن بدوي: الموت والعبقرية: ١٠٠–١٠١.

يقول الدكتور (جونسون): «لابد أن يكون الشخص نفسه خير من يكتب سيرة حياته»[١] ويعلل لذلك في لهجته الحاسمة قائلاً: «الذي يكتب عن حياته عنده أول مؤهل من مؤهلات المؤرخ، وهذا المؤهل هو معرفة الحق. وبالرغم من أنّه قد يُعتَرض على ذلك بأن المغريات التي تزين له إخفاءه معادلة لفرص معرفته – وهو اعتراض وجيه – فإنني مع ذلك لا يسعني إلا أن أُقدِّر أن النزاهة يمكن أن تُنتظر من الذي يتحدث عن حياته بمقدار ما تنتظر من الذي يتحدث عن أعمال غيره، وما يعرف معرفة تامَّة لا يمكن تزييفه إلا بعد أن يتردد العقل ويرتاع الضمير. والعقل يؤثر الحق والضمير هو حارس الفضيلة، والذي يتحدث عن نفسه ليس هناك ما يدفعه إلى الكذب أو التعصب سوى حب النفس، وهو طالما خدع الناس حتى أصبحوا جميعهم يحذرونه ويتقون حيله وألاعيبه»[٢].

غير أن معاودة النظر تجعلنا نتردد كثيراً قبل التسليم لهذا الظن المتعجل؛ لأن العين لا ترى نفسها إلا بمرآة – كما يقول أحمد أمين[٣] – فالشيء كلما ازداد قرباً صعبت رؤيته، وفي ذلك تقول العرب: (شدّة القرب حجاب).

ألا تمرّ بأحدنا لحظاتٌ ينكر فيها نفسه التي يحملها بين جنبيه؟! أما شعر أحدنا بتأنيب الضمير ساعة من ليل أو نهار، لأنّه أقدم أو أحجم، وهو لا يرى للإقدام أو الإحجام مسوّغاً يتفق مع مُثُله وقيمه ولاحتى دوافعه الكامنة وحاجاته الملحة؟! فعلام يدل ذلك؟!

إنه ليدل على أنّ «للنفس أعماقاً كأعماق البحار، وغموضاً كغموض الليل، فالوعي واللاوعي، والعقل الباطن والظاهر، والشعور البسيط والمركب، والباعث السطحي والعميق، والغرض القريب والبعيد، كل هذا وأمثاله يجعل تحليلها صعب المنال، وفهمها أقرب إلى المحال... ومن أجل هذا كان قول (سقراط): (اعرف نفسك بنفسك) تكليفاً شططا وأمراً يفوق الطاقة...»[٤].

---

(١) نقلاً عن: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١٠٩ (ترجمة ناجي الحديثي).

(٢) نقلاً عن علي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٠–٢٦١.

(٣) ينظر: حياتي: المقدمة: ص٣.

(٤) السّابق: ٣–٤.

إنه ليقف دون الصدق التام الخالص/الحقيقة عقباتٌ كثيرة عرض لها بعض المهتمين بأدب السيرة الذّاتية[١]، مثل: أندريه موروا[٢]، والدكتور عبدالرحمن بدوي[٣]، ود. ماهر حسن فهمي[٤]، وعلي أدهم[٥]. وأمام تلك المعوقات ينتهي هؤلاء الدارسون وغيرهم – إذا استثنينا رأي الدكتور جونسون المفرط في الثقة والاطمئنان[٦] – إلى فريقين:

١. فريق يرى السيرة الذاتية وما شاكلها من الآداب أكاذيب وتلفيقات وادعاءات جوفاء خالية من الحقيقة (خيالات وأوهاماً) وممن يرى هذا الرأي (برنارد شو) والكاتب الألماني الفكه *(Wihelm Busch)*. يقول (برنارد شو): «التراجم الذاتية جميعها أكاذيب، ولا أعني بذلك أنها أكاذيب غير متعمّدة وبدون وعي، وإنما أعني أنها أكاذيب مقصودة. فليس هناك إنسان يبلُغ به السوء إلى حدٍّ أن يحدثنا عن حقيقة نفسه في أثناء حياته. إذ يلزم أن يتضمن ذلك ذكر الحقيقة عن أسرته وأصدقائه وزملائه»[٧]. ويقول *(Wihelm Busch)*: «لا شيء يبدو على حقيقته التامة، ناهيك عن الإنسان، هذه التركيبة الجلدية التي تفيض بالحيل والنزوات، وأقنعة الزهو والخيلاء. وكُلّما أراد المرء أن يعرف شيئاً اضطر إلى الاعتماد على الرأس بل الرؤوس، وهم خدمٌ لا يوثق بهم، فأنّى له أن يعرف الأحداث على اليقين. ومَنْ مِنَّا في هذا العصر بتلك السذاجة؛ حيث يصدق أقوال التراجم، أو تواريخ العالم، إنها

---

(١) يغفل الدارسون لفن السيرة الذاتية وما شاكلها قيداً يكبل كاتب السيرة الذاتية ويحد من حريته في تسجيل الصدق الكامل، وهو الدين، فالدين ليس شعائر تؤدى فحسب ولكنه عقيدة تنظم التفكير وتوجه النشاط الإنساني على وجه عام.

(٢) ينظر: السابق: ١٠٩–١٢٠.

(٣) ينظر: الموت والعبقرية: ٩٩–١١٠.

(٤) ينظر: السيرة تاريخ وفن: ٢٣٩–٢٤٣.

(٥) ينظر: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦٠–٢٦٤.

(٦) سبق الاستشهاد برأيه آنفًا؛ وقد جعلنا رأي الدكتور جنسون هذا في كتابنا (السيرة الذاتية.. الحدّ والمفهوم–والمفهوم–٢٠٠٣م): اتجاهاً مستقلاً، ووصفناه بأنه اتجاه يطمئن تمام الاطمئنان إلى أدب السيرة الذاتية وما شاكلها.

(٧) نقلاً عن: علي أدهم: لماذا يشقى الإنسان: ٢٦١.

كالأساطير أو الحكايات، وما ذكرت الأسماء فيها، وعُيِّن زمانها ومكانها إلا ليسهل تصديقها...»[١].

٢. أما الفريق الثاني فيذهب إلى أن فيها شيئاً كثيراً من الصدق والخيال، وأن الصدق في السيرة الذاتية «مجرد محاولة وهو صدق نسبي وليس شيئاً متحققاً، لأن هنالك عوائق تعترض سبيل المترجم لنفسه، وتحول بينه وبين نقل الحقيقة الخالصة»[٢] ويرى هذا الفريق أنه «بقدر اقتراب السيرة الذاتية من هذا المثال البعيد [يعني الحقيقة الخالصة] تكون قيمتها الموضوعية»[٣].

ثانيًا: الالتزام بالصدق في الذكريات:

يرى الطنطاوي – وهو قارئ جيد لأدب السيرة الذاتية – أن المدار في الكتابات التي تبحث في الذات وتستكنهها كالسيرة الذاتية والذكريات وما شابههما على الصدق ومطابقة الحقيقة[٤]. ولهذا فهو يعاهد القارئ ابتداءً على الصدق فيما يحكيه أو يرويه أو يصف به نفسه أو غيره؛ فيقول في مطلع الحلقة الأولى من ذكرياته:

«لكم علي عهدٌ أنا موفٍ به – إن شاء اللّه – هو ألاّ أقول إلا الحق، وألاّ أذكر مما صنعت إلا ما يشهد كل من (عاصره) أنني صنعته...»[٥].

وهذا يعني أن (الحق) الذي يلتزمه الكاتب ليس حقاً مطلقاً يعرفه عن نفسه ويشهد به لها وكفى، ولكنّه (حق) ذو قيد آخر تبرزه العبارة الثانية:

«وألاّ أذكر مما صنعت إلا ما يشهد كل من (عاصره) أنني صنعتهُ»[٦].

---

(١) نقلاً عن: د. رُودلف زلهايم: خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٣٠–٣١ (مقالة – مجلّة مجمع اللغة العربية).

(٢) د. يحيى عبدالدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: ٦.

(٣) د. ماهر حسن فهمي: السيرة تاريخ وفن: ٢٣٩.

(٤) ينظر: الذكريات: ٢٧٨/٤.

(٥) الذكريات: ١٢/١.

(٦) السابق: ١٢/١.

وهذه العبارة إذن قيد (احتياطي) – إذا صح التعبير – لطمأنة القارئ إلى أن ما يذكره صدق، ولو كان ظاهره مدح النفس أو الثناء على أفعالها أو تسجيل مآثرها. ومفهوم العبارة يدل على الجانب الحسن المشرق من الشخصية؛ إذ يستحيل أن يَسْتشهد المعاصرين على المعايب، لأنها في الغالب مستورة وغير معروفة إلا لصاحبها أو لمن التصق به أشدّ الالتصاق، ولذلك فهو يشرح طبيعة هذا العهد في موضع آخر فيقول:

«وعدت في مطلع هذه الفصول أن أقول الحق: لا أضيع شيئاً مما هو لي تواضعاً، ولا آخذ شيئاً ليس لي تزيّداً»[١].

والشرح إذا كان موضحاً لطبيعة المتعاهد عليه، فإنّه يعني أن الكاتب قد اهتدى فعلاً إلى مفتاح الحقيقة عند الحديث عن الذّات، وهو التوازن بين الادعاء والمبالغة وبين التواضع ونكران الذّات[٢].

ولكن الطنطاوي يغفل جانباً مهمًّا آخر لا يشير إليه على المستوى النظري، وهو: البُعد السلبي من شخصيته، حيث لا يشير إلى الموقف منه!! على العكس من التطبيق؛ فقد كان الكاتب يتمتع خلاله بقدرة فائقة على محاصرة النفس وحسابها وعرضها متجردة مما يزيِّفُها، وكان يذكر بكل ثبات وهدوء إلى مظاهر النقص في شخصيته وما يقلقه فيها من سمات وصفات لا يرضى عنها. وذلك يحتاج إلى الشجاعة والوعي بالنفس والفهم العميق لمكوناتها ودخائلها. غير أن سؤالاً يظل معلقاً دون إجابة، وهو: لماذا لم يتعرض الكاتب لبيان موقفه نظريًّا من قول الحق (السلبي) الموجع لذاته، برغم شجاعته ونجاحه إلى حدٍّ بعيد على المستوى التطبيقي؟!! ويزداد السؤال حضوراً في وعينا إذا عرفنا أن الكاتب قد قرر حقيقة مهمة في هذا الصدد، هي: أن القضاة:

«في المحكمة يُحلِّفون الشاهد بأن يقول الحق، كل الحق، ولاشيء غير الحق، ذلك لأن بعض الحق أقرب إلى الباطل...»[٣].

---

(١) السابق: ١/١٩١–١٩٢.

(٢) ينظر: إبراز الجوانب المضيئة والمتميزة في الشخصيّة آخر هذا الفصل.

(٣) الذكريات: ١/١٤–١٥.

فلماذا لم يشر إلى موقفه من الحق الآخر الذي يمس الجانب السلبي من ذاته؟!! والإجابة الحاسمة لهذا السؤال غير ممكنةٍ الآن، والذي أتوقعه أن ذلك يعود إلى أحد أسبابٍ ثلاثة، هي:

– صعوبة الإعلان نظريًّا عن الإقبال على تعرية الذّات، وإظهار المآخذ، وإبراز المثالب من كاتب كالطنطاوي له مكانته في الدّعوة، ومنزلته الوجيهة اجتماعيًّا ودينيًّا في مجتمع محافظ مثل: المملكة العربية السعودية.

– أو ربما لأنّه لم يشأ جعل ذكرياته معرضاً من معارض (الاعتراف) التي لا يأذن بها الدين أولاً، ولا يتقبلها المجتمع الذي يقيم فيه ثانياً. وقد أكّد الكاتب للباحث أنه قد كتب ذكرياته ولم يُسجل اعترافاته[1].

– أو لعله لم يرد إلزام نفسه بعهد أو وعد يقيده أو يحمله على ما لا يقدر على الوفاء به.

وقد يعود إليها جميعاً أو لغيرها من الأسباب، ولكنه – على كل حال – رأى تركه لوقت الكتابة، فإذا وقع في ذاته أو سلوكه على ما يستحق الإشارة إليه، من جوانب الضعف البشري ووجد في نفسه الرغبة الصادقة والشجاعة في مجابهة العائبين دَوَّن ما يريد بكل جرْأة وصراحة. والذي يهمّ أن الكاتب قد أدرك أهمية الصدق في كتابه الذي نقرؤه الآن. وسوف نستكمل تصورات الكاتب بهذا الخصوص خلال ما يأتي من حديث إن شاء اللّه تعالى.

ثالثًا: معوقات في سبيل الحقيقة الكاملة في الذكريات:

سبق آنفاً إلى أن الطنطاوي لا يريد أن يذكر من الحق بعضه ويصْمت عن بعضه، لأن بعض الحق أقرب إلى الباطل، على حد تعبيره[2]. وهذا حق وصدق، ولكنه اصطدم بمعوقات أعاقت هذا الصدق المطلق وجعلته يشتكي ويتذمّر بعد أن قطع مرحلة من الكتابة. وهذه المعوِّقات التي أفصح الكاتب عن معاناته معها هي:

---

(١) يراجع مبحث: (الاعتراف/المكاشفة) بهذا الفصل.

(٢) الذكريات: ١٥/١.

١. اللغة:

بما أن (الذكريات) قبل كل شيء – فعل لغوي – ومادامت اللغة في نظر الطنطاوي مهما بلغت من الإتقان والأصالة غير قادرة على التعبير عن الوجدان والمشاعر – فإنها عاجزة عن نقل الحقيقة وتسجيل الصدق الكلي. وهي أيضاً – بهذا الفهم – عائق يصعب تجاوزه لمن أراد أن تكون سيرته صادقة صدقاً مطلقاً... يقول الطنطاوي:

«... ما أذكره كيف أقدر أن أُثبته على الورق؟

إن أجمل آثار الكاتب أو الشاعر هي التي لم يكتبها. ومتى كانت الكلمات تسع العواطف والأفكار، ومتى كانت تسجل كل مشاهد الكون، فضلاً عن مشاعر النفوس؟ أتقدر أن تسجل ألوان الغروب حتى لا يفوت قارئ قصيدتك – أيها الشاعر – أو ناظر لوحتك – أيها الرسام – شيء منها؟

كم قال الشعراء وكم كتب الكُتَّاب في (الحب)، فهل أحاطوا بمعاني الحب، هل أدركوا أسرار الجمال؟ هذه الكلمة المكونة من حرفين اثنين: الحاء التي تُعبِّر عن الحنان، والباء الساكنة التي ترى الفم وهو ينطق بها مجموع الشَّفتين كأنّه متهيِّئٌ لقبلة!! هل تحيط كلمة (الحب) بكل أشكال الحب، الأم تحب ولدها، وهذا يحب من الشعراء البحتري، والثالث يحب من البلاد مكّة، والرابع يحب ركوب البحر، والخامس يحب الفول المدمس بالزيت لا بالسمن... وقيس يحب ليلى، أفهذا كله (حب) واحد؟ وحب الله الذي هو جوهر الإيمان أترونه يشبه ما ذكرت من أنواع الحب؟

والجمال؟ جمال الطبيعة، وجمال البلاغة، وجمال الشيخ الوقور، وجمال المرأة الحسناء، هل هو (جمال) واحد؟ ولو جئت بمئة جميلة لوجدت مئة جمال، كل له طعم، وكل له لون، وكل من نوع، وما عندنا لهذا كُلّه إلا كلمة واحدة، لذلك نعمد إلى الأوصاف، فنقول: هذا جمال وديع، وهذا وحشي، وهذا شهواني، وهذا ما لست أدري... إن لغات الأرض تعجز عن التعبير عن مشاعر النفوس، فكيف نريد منها أن تعبر عن عالم (ما وراء المادّة) عن (عالم الغيب)؟»[1].

---

(١) السابق: ١/١٠٩–١١٠.

وإشكالية العلاقة بين (الفكر) أو (المعنى) بصورة أشمل وبين (اللغة) أَرَّقت الكاتب كثيراً بصفته أديباً أضناه تلمس المناسب المعبر من اللغة في إبلاغ رسالته الأدبية وتجربته. وقد تساءل عن ذلك مراراً في الذكريات وفي غيرها[1]، ولكنّه لم يكن يصل إلى شيء؛ لأنّه لا يحاول استكناه المسألة ولا سبر أغوارها، ولا التمادي وراء الأسئلة بحثاً عن إجابة حاسمة أو مقنعة على الأقل.

والحقيقة أن اللغة وسيط/وسيلة، والفكر/المعنى حقيقة أو غاية، على اختلاف في نسبة ذلك بحسب المجال (أدب – علم – يومي). والفرق شاسع ما بين الحقيقة أو الغاية والوسيط أو الوسيلة. ويكفي في الوسيلة الناجحة أن تشير إلى الغاية إشارة دقيقة ولو عن بُعْد[2].

أما خصوصية التعبير أو قدرته فتبقى رهن إمكانات الكاتب وطاقاته، وفاعلية القارئ واستعداده، ويصعب جدّاً جعل حدود (مقفلة) متوقعة لما تثيره اللغة من تداعيات خصبة أو شحيحة، لأننا لا نتعامل مع طرف واحد بل نتعامل مع عدة أطراف، أو بلغة الاحتمالات نتعامل مع متغيرات متجددة غير ثابتة. أما أن تكون الوسيلة/الوسيط في ذاتها/ذاته عين الحقيقة/الغاية – كما يريد أو يتمنى الطنطاوي – فشيء لا يتصوّر عقلاً، ولا يمكن تحقيقه واقعاً. وهذا – إذا كان عجزاً عن أداء الحقيقة على وجهها – ولاشك أنه كذلك – لا يختص الكاتب دون غيره، ولكنه عام يشمل كل من يستعمل اللغة أداة بشريّة، للتواصل الوجداني والفكري، فيها من النقص ما هو مستولٍ على مستعمليها من بني البشر.

٢. سعة الحياة وضيق الكتابة:

ومن الصعوبات التي أحس بها الكاتب – وعاناها أيضاً صعوبة اختزال الحياة العريضة المليئة بالتفصيلات والناس والأحداث في مساحة محدودة جدّاً عند الكتابة، يقول الكاتب:

---

(١) ينظر: علي الطنطاوي: فتاوى علي الطنطاوي: ٩٥–٩٦.

(٢) هذا الحكم يجري على اللغة في وجهها الوظيفي/الموضوعي، وليس اللغة بصفتها الإبداعية والفنية؛ إذ هي حينئذٍ غاية فنية وجمالية في حدّ ذاتها.

«أرأيت الماء الذي ينزل من الأنبوب قطرة قطرة؟ يملأ كأسك في ساعة. أمّا إن كان يخرج منه بقوّة واندفاع، فإن الكأس لا تمتلئ أبداً، لأن الماء ينبوعنها، ويتطاير منها، فلا يستقر منه شيء فيها.

هذا مثالي لما قعدت أكتب عن المدرسة التجاريّة، وحين أقعد الآن لأكتب عن مكتب عنبر. كانت ذكرياتي هناك قليلة فلم أجد منها ما يصلح لمقال، وهي اليوم كثيرة جدّاً لا أدري ما الذي أدعه منها، وما الذي أختاره لهذا المقال»[١].

ويقول مؤكداً الفكرة نفسها:

«عشت في هذا المكتب ست سنين كانت أحفل سني حياتي بالعواطف، وأغناها بالذكريات، وكانت نفسي كأيام البناء في تاريخ الدار، لو عاشت الدّار بعدها ألف سنة لكانت تبعاً لهذه الأيام، التي يرسم فيها المخطط، وتحدَّد الغرف، ويُرسى الأساس، فكيف أُدخِل ست سنين بطولها وعرضها في عشر دقائق، هي مُدّة قراءة هذا الفصل، كيف أجمع البحر في كأس، وأحصر الدنيا في صندوق؟

لقد عشت فيه من الصف السابع إلى الثاني عشر، ما تأخرت ولارسبت، ولكنها لم تكن ست سنين إلا بحساب التقويم المعلق على الجدار، وهل يقاس عمر الإنسان بالأشهر والأعوام؟ إن ليلة الصيف تمتد في تقدير عقارب الساعة عشر ساعات، سواء في ذلك ليل العاشق الناعم بالوصال، وليل السجين المكبل بالأغلال، مع أن ليلة الوصال في الحقيقة لحظة، ولحظة العذاب دهر طويل، أليست هذه نظريّة النسبية؟!.. ست سنين، ولكن كانت هي العمر»[٢].

ولاشك أن الإحاطة بالحياة في الذكريات أو في غيرها أمر مستحيل، لأن حياتنا ليست عالماً واحداً كما قد تبدو أوّل وهلة، فلحظتنا التي تجتازنا أو نجتازها تعيش خلالها عوالم متعددة منها الخارجي: (مكان – أحياء – اهتمامات – أصوات – بيئة – أصدقاء) وداخلي: (هموم – أحلام – أفكار – أحاسيس – آمال – تأملات – رغبات – غرائز) وكل من العالمين الخارجي والداخلي مليء بعوالم أخرى نعيش خلالها بأجسادنا

---

(١) الذكريات: ١/١٠٩.

(٢) السابق: ١/١٠٦-١٠٧.

تارة، وفكرنا تارة، ووجداننا تارة، وبآمالنا وتطلعاتنا تارة، وننجذب إلى أحد العالمين الفسيحين حتى لنتوّهم أننا قد انخلعنا عن العالم الآخر تماماً، وهو في الحقيقة ماثل فينا. وإذا كانت (لحظةُ) الحياة بحركتها وتنوعها وتداخل حيوات الناس فيها قد شملت كل تلك العوالم مجتمعة في الزمن ذاته؛ فإن اللحظة الكتابية تعجز عن الإحاطة بعالم واحد منها تمام الإحاطة، وإذا تصورنا – وذلك غير ممكن – إمكانية الإحاطة بها؛ فلابُدّ من أكثر من سارد وأكثر من قلم وأكثر من كتاب لتفريغ تلك العوالم لحظة بلحظة، ولكن يجب أن نعرف قبل التَّحمُّس لقبول هذا التصور المنافي للممكن أننا نروم (تجميد) الحياة المتحركة التي تتفجر نشاطاً وحركة دائبة في قالب كتابي محدود؛ فكيف نحبس (المستمر) في غير (المستمر).

٣. الأصدقاء والمعاصرون:

لا يمكن أن يعيش الإنسان منعزلاً، ولا يمكن تصور حياة إلا وهي تختلط وتتداخل مع حيواتٍ أخرى، فالحياة حركة دائبة، ومَدّ وجزر. وكثير من الأمور الممكنة والعادية مستحيلة إذا رام الفرد القيام بها وحيداً، فمن سُنَّة الحياة الاجتماع، ومن لوازم المعيشة التعاون.

وقد وجد الكاتب نفسه وجهاً لوجه – وهو يسرد تفاصيل حياته الخاصة – أمام الآخرين، وألفى جزءاً كبيراً منها لا يمكن إغفاله يتعلق شطره بذاته، وشطره الآخر بغيره. فالحياة مواقف والناس بين مؤيد ومخالف وموافق ومعارض، ولابُدّ حينئذٍ – لاسيما في حياة رجل مصلح تتسع خصوصياته لتشمل أمته وهمومها وتتشعب حياته في جميع الاتجاهات – من مصادمات ومعارضات. وليس كل الكلام يمكن أن يقال – ولو ادعينا نظريًّا ذلك – لأن الكاتب سوف يصطدم تطبيقيًّا بعقبات كثيرة منها:

- الحذر والخوف من أصحاب الجاه والمكانة، وهذا هو أقل المعوقات لتطاول الزمان واختلاف المكان والظروف.
- المحافظة على مشاعر الأصدقاء القدماء، وهم يوشكون على الرحيل إلى العالم الآخر ويفضون إلى ما قدموا، أو المحافظة على مشاعر أبنائهم، إذا كان الموت قد طواهم في عالمه.

○ خشية التَّأثُّم والقذف.

وقد وقف الكاتب في الحلقة الحادية والثلاثين بعد المئة (١٣١) ليقول:

«أنا قد دنوت الآن في ذكرياتي من مرحلة الخطر. ذلك أني أذكر الحق عن رجال منهم القليل الذي بقي، ومن ذهب إلى رحمة اللّه وبقي أبناؤه وإخوانه الذين يريدون أن تكون هذه الذكريات قصائد مدح، كمدح الشعراء للخلفاء، ولا يحتملون نقداً ولو كان يسيراً ولو كان حقّاً...»[١].

ولكن الكاتب يعود فيحسم المسألة تماماً ويحدد المنهج الذي يختاره ويلزم نفسه بالسير عليه:

«لقد ترددت بين أن أسايرهم وأرضيهم بعض الرضا، وبين أن أقول كلمة الحق ولا أبالي، فآثرت أن أقول كلمة الحق...»[٢].

والذي يظهر للباحث أن الكاتب قد وَفَى بما التزم. ومن تتبع أحاديثه عن أصدقائه القدامى ومنافسيه، وجده يذكر ما لأصدقائه ومنافسيه ومصادميه وما عليهم، ولا يجمجم القول أو يفرّ من مواجهة الحقيقة في جانبيها. وكان يلاقي في ذلك عنتاً شديداً وعتاباً من بعض أهله وخاصَّةِ جلسائه – كما ذكر لي ذلك بنفسه[٣]– ولكنّه اختار سبيل الحق ولو كان ثقيلاً لأنه الأقوم والأقسط[٤].

وحين يجد من نفسه تراخياً – لأي اعتبارٍ كان – يخشى منه على الصِّدق؛ يُضَحِّي بالاسم أو يلمح إليه لمحاً، ويترك للقارئ معرفة شخصه مكتفياً بما ساقه من الحقيقة والقرائن الدّالة والكاشفة لشخصيته. وقد يضع مكانه رموزاً تمثل الحرف الأوّل من اسم الشخص المقصود. وذلك – دون ريب – يدل على أن مطلبه الحق، وأنه إنّما فعل ذلك اتقاء الحرج الذي يُذهب توقِّيه بمصداقيته. وكما تظهر

---

(١) السابق: ٥٦/٥.

(٢) السابق: ٥٦/٥.

(٣) في مقابلة للباحث معه يوم الخميس: ١٤١٦/٥/٢٥هـ (بمنزله – جدّة).

(٤) راجع: مبحثي: (الانصاف والعدل)، و(الصراحة في النقد والتعبير عن الفكر) ضمن صور الصدق في الذكريات، بهذا الفصل.

شَخْصيةُ المسكوت عن الإفصاح باسمه أو الملمح إليه عن طريق ما ينسب إليه الكاتب من الحقائق والقرائن؛ تنكشف شخصيّة المرموز إليه عن طريق الربط المنطقي بين الأحداث والأسباب والمسببات[١].

٤. التَّحرج والخجل من ذكر ما يسجل له من محاسن وأفعال:

وسوف يأتي الحديث عن هذا الجانب عند تعرّض الدراسة لـ (صور الصدق في الذكريات)[٢].

٥. سُنَّة التطور والتغيّر:

ومن أبرز الصعوبات التي أفصح عنها الطنطاوي، ورأى أنها سوف تؤثر في مستوى الصدق فيما يكتبه، سُنّة التطور والتغيُّر، فالإنسان ينمو ويتطور تفكيره وتتغير ميوله، وتتحول اهتماماته وأهواؤه؛ فيحب ما كان بالأمس يكرهه، ويكره ما كان يحب، ويستطيب مَنْ كان يقلاه. وكذلك تتغير مقاييسه العقلية وتصوراته، فَيُقْبل على ما كان يرفض، ويرفض ما كان يقبل وهكذا. وهذا له أثره العظيم في وصف الأحداث والحكم عليها والإحساس بها. فحين يتعرض لحادث وقع أيام طفولته أو شبابه؛ لا يتناوله من خلال إدراك الطنطاوي وإحساسه آنذاك – كما يفترض الصدق ذلك – لأنه محكوم بالمرحلة الفكرية والزمانية للأحداث، وإمكانات الشخصية المرتهنة هي أيضاً بزمانها ومكانها وتكوينها الفكري. ولكنه سوف يعاود قراءته من ذاكرته بإمكانات غير موجودة آنذاك (إمكانات أخرى) فيها من فكر الطنطاوي زمن كتابة الذكريات، وعقله وتكامل تجربته أكثر مما فيها من الطنطاوي آنذاك. وكم من شيء كان يصنِّفه في دائرة (الخير) المحض فلما انقضت مُدّته وتطاول من حوله الزمان انكشف خبيئه وبان عواره،

---

(١) للوقوف على نماذج من التعريض توصف فيها الشخصية ولا يذكر اسمها، ينظر: الذكريات: ٣١/١ و١١٣/٢، ١١٧، ١٥٨ و١٧٦/٣ و٣٤/٤، ٣٥، ٣٧ و٢٠٢/٤ و١٠/٧، ٩٠ و١٢٥/٨.

وللوقوف على نماذج يرمز فيها الكاتب إلى الشخصية بحروفها الأولى: ينظر السابق: (ك. أ.) ٢٧٨/٣ و١١٢/٤– ١١٣ و(ح. ق.) ٢٧٩/٦ و(ف. م.) ٢٨٠/٦ و(ب. س.) ٢٨٢/٦.

(٢) يراجع المبحث الأخير من هذا الفصل: (إبراز الجوانب المضيئة والمتميزة في الشخصية...).

وظهر له خطأ ما كان أسلفه من ظن حسن، ولكنه اليوم يحكم عليه بصفته حدثاً كاملاً وليس بالنظر إلى نقطة البداية حين كان الحدث وليداً لما تتكامل تفاصيله، والشخصية خالية الذهن لما تتكامل أطراف تصورها عنه بفعل الزمن وتمادي الموضوع. يقول الطنطاوي:

— «... إنني حين أتحدّث عني وأنا صغير أكون كمن يتحدث عن إنسان آخر هو أنا، وليس أنا!!! لا أتفلسف ولا آتي بالأحاجي والألغاز، بل أقرر حقيقة. قلت لكم: إنّه مرّ في حياتي عشرات من الناس، كلهم يحمل اسمي، وكلهم (أنا) بمعنى الكلمة عند زملائنا أساتذة علم النفس، وما منهم إلا واحد هو (أنا) بإحساسي وعاطفتي وفكري!!»[1].

ويشرح الفكرة في موضع آخر فيقول:

— «نحن في تَبدل مستمر، كل يوم يموت فيّ شخص ويولد شخص جديد، والميت أنا، والمولود أنا خلايا جسدي تتجدد كلها كل بضع سنوات حتى لا يبقى منها شيء مما كان، عواطف نفسي تتبدل، فأحبّ اليوم ما كنت أكره بالأمس، وأكره ما كنت أحبّ، أحكام عقلي تتغير فأصوّب ما كنتُ أراه خطأ، وأخطّئ ما كنتُ أجده صواباً...»[2].

إنها إذن خسارة جسيمة ألاّ نوفق إلى تدوين وثائقنا الخاصة المزامنة لوقوع الحوادث لحظة فعلها في وجداننا. لأننا لا نعود قادرين على رصد حركتنا الداخلية من الموقع ذاته الذي كنا من خلاله نطلع على الأشياء ونفهمها، ونقبلها ونُقبل عليها، أو نرفضها وننأى عنها. يقول الطنطاوي:

— «الخسارة التي لا تعوّض أني لم أدوّنها في حينها... تقولون اكتبه الآن. الآن؟ هيهات! فلا أنا الآن (أنا) في ذلك اليوم، ولا مصر مصر، ولا أهلوها أهلوها، لا أقول إنهم كانوا أحسن، أو إنهم كانوا أسوأ، بل أقول إنهم تغيروا، ومنذا الذي ياعزُّ لا يتغيرُ؟ وهب أن مصر ما تبدلت، أفما تبدّلت أنا؟

---

(١) الذكريات: ١/١٥.

(٢) السابق: ١/٩-١٠.

نحن نرى الدنيا من خلال نفوسنا، كالذي يبصر وعلى عينيه النَّظارات: إن كانت النظارة دخانية رأى الدنيا معتمة، وإن كانت زهراء رآها مشرقة، وإلا فلماذا يصف الشاعر الفَرِح الدنيا ضاحكةً، ويصفها الحزين باكية، والدنيا هي الدنيا ما ضحكت ولابكت. ولو كانا مصورين لملأ الأول لوحته بالألوان القاتمة، وجعلها الثاني زاهية الألوان، والمشهد واحد أمامهما...

لقد كانت صورة رائعة تلك التي انطبعت في نفسي ساعة وصلت إليها، ولكني لم أستخرجها وأحتفظ بها، بل صورت المشهد بعدها من غير أن أدوّر (الفلم)، فجاءت عشرات من الصور بعضها فوق بعض، فتداخلت خطوطها، واختلطت معالمها، ولم أعد أستبين واحدة منها. فهل أسجلها الآن بعدما مّر عليها أربع وخمسون سنة؟ بعدما فقدتها؟!

لقد سقطت مني في مسالك الحياة، وفي مسارب العمر. إن الذي يسقط منه شيء يعود أدراجه يفتش عنه في الطريق الذي جاء منه، فمن لي بأن أعود لأسلك كَرّة أخرى طريقي في الحياة؟ أعود إلى الشباب؟ إلى سنة ١٩٢٨م وما بعدها؟

لقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلامُ»[1]

٦. الاعتماد على الذاكرة:

الاعتماد على الذاكرة أكبر الصعوبات التي واجهها الكاتب في (الذكريات)؛ لأنّه لم يكن قد دون لنفسه مذكرات يومية أو دورية كتبت مزامنة للأحداث البارزة في حياته لتعينه على الاسترجاع، وتسهل له السبيل إلى إعادة التركيب والتنظيم. وقد أشار الكاتب صراحة إلى (الذاكرة) بوصفها عقبة كأداء يتعذر معها أداء مهمة الصدق النقي الخالص من شوائب التحريف والتلفيق والتَّزيُّد. ذلك أنه لاحظها حين يعود إليها ليمتح منها (ذكرياته) تضن عليه بكثير من التفصيلات المهمة، وقد تحجب عنه فترات بأكملها بسبب النسيان الطبيعي لتطاول العهد، أو بفعل ضغط العقل والشعور عليها لإخفائها بعيداً عن

---

(١) السابق: ١/٢٤٩-٢٥١.

عالم الإدراك والتجارب القابلة للاستعادة لسبب من الأسباب[١]. ففترة الطفولة برغم أنّه يبدأ التذكر منذ سن الخامسة تقريباً – وهي فترة لابأس بها قياساً إلى المرحلة العامّة التي يأخذ الناس في تذكرها، تتسم بالضآلة والشتات، ولا يكاد يبدو منها إلا مشاهدات يسيرة اقترنت بأحداث مثيرة فجأت الكاتب في طفولته المتفتحة على العالم، مثل: آثار الحرب العالمية الأولى في المجتمع الشامي ودمشق بلدته بخاصة، وصور مختلفة للعهود الانتقالية التي بعدها (العهد العثماني – العهد العربي – الانتداب)، وذهابه إلى المدرسة: (الكتاب) أوّلاً، ثم (المدرسة التجارية) في (السلطانية الثانية) في (الجقمقية)[٢]، ومشاهداته وانطباعاته عن شهر رمضان الذي رآه أول مرّة[٣]. أما ذكرياته الأُخرى عن مجتمعه الخاص (أسرته) وعلاقته بوالديه وإخوته وبباقي أفراد أسرته، وعلاقة الأسرة بعضها ببعض، والقيم الأخلاقية والفكرية التي كان يتلقاها، والطريقة التي تربى عليها، ومكانة والده من الأسرة، وانعكاس ذلك على نفسه، وما اتصل به من الأقران، ومن عرفه من الإخوان فشيء لم يتعرض له؛ لأن ذاكرته لم تستوعبه فيما يبدو. ويمكن القول إن مرحلة (مكتب عنبر) وقد التحق به الطنطاوي نحو عام: ١٣٤٢هـ–١٩٢٣م وله من العمر نحو أربعة عشر عاماً هي البداية الفعلية التي تتميَّز فيها ذكريات الطنطاوي بالشمول والتركيز والتكامل[٤]. يقول:

> **«أني أُدَوِّن هنا ذكرياتي، بل الأقل مما بقي في ذهني من ذكريات... أما أكثر الذكريات فقد سقط مني في مسالك الحياة، أو امتدّت إليه فسرقته أيدي النسيان»**[٥].

وهناك فترات بأكملها سقطت من ذاكرته تماماً دون مسوّغٍ واضح، على الرغم من أن ما يحيط بها واضح أشدّ الوضوح وأقواه، مثل الفترة التي أعقبت وفاة

---

(١) يأتي كلام الطنطاوي عن ذلك بعد قليل.

(٢) ينظر: الذكريات: ١/٩–١٠٠، و٨/٣٠٣–٣٢٠.

(٣) ينظر: السابق: ٣/١٠٧–١١١.

(٤) ينظر: السابق: ١/١٠٣ وما بعدها.

(٥) السابق: ٣/١٢٠.

والده – رحمه اللّه – وهي فترة مهمّة جدّاً لأنها تبرز لنا كيف انتقل الطنطاوي من (معول) إلى (عائل) يكدح ويكسب ويطعم أُمًّا له وإخوة من خلفه. وتكْشِفُ عمّا لاقاه من عنتٍ وألم وضياع وخذلانٍ، ومتاعب نفسية وجسدية حتى استقام له طريقهُ، أو اعتاد السير فيه على هناتِه. ويقيناً إن أحاسيس صادقة شتى كانت تضطرب في فؤاد ذلك الصبي، وأنّ تطوّراً نفسيًّا واجتماعياً واسعاً، وتحوّلاً في الاهتمام والتفكير، قد زامن هذه الفترة الحرجة من عمره. وما كان أجدرها بالتسجيل، ولكنَّ الذاكرة أضاعت عليه الوقوف على هذه الفترة، وفوَّتت علينا التنقيب عن أثرها في شخصيته فيما بعد. يقول الطنطاوي:

«قعدتُ الآن أكتب عمّا مرّ بي، بعد موت أبي، وقد عرفتم أني لا أعتمد في هذه الذكريات على شيء مكتوب، ما أعتمد إلا على ذاكرة خرقها كَرُّ الليالي فصيَّرها مصفاة.

رجعت إلى ذاكرتي، فهل تَصدِّقون أن هذه المرحلة الوعرة، من طريق حياتي، المرحلة التي مشيت فيها على الأشواك فلطف اللّه بي، فلم تُدمَ منها قدمي، وعلى الرمضاء فلم تُكْوَ بها رجلي، هذه المرحلة كادت تَمَّحِي صورها من نفسي.

أي واللّه، وذلك من نعم اللّه علي، حتى لا أعود فأذكرها فتؤلمني ذكراها. كنت فيها كماشٍ على الجادّة المعبَّدة، فعاقته العوائق عن الاستمرار فيها، واضطرّته إلى تنكبها، وإلى السير في الوعور، والقفز من فوق الصخور، والتخبط في المفازات، ثم يَسَّر اللّه له العودة إلى الجادّة، فمن فرحه بالخلاص مما كان فيه، لم يعد يريد أن يعود إليه ولا بالذكرى، ولذلك نسيت أكثر أحداثها. كانت كصفحات دفتر أصابها الماء فطمس سطورها إلا كلمات متفرقات بقيت واضحات...»[1].

وهذا بطبيعة الحال غير النسيان الذي يقود إلى الاختلاط، وتداخل التواريخ، والأَسماء والأماكن، وهو وإن كان محدوداً جدّاً في ذكريات الطنطاوي إلا أنه

---

(١) السابق: ١/١٨٥. وراجع كتب علم النفس بخصوص هذا الجانب، ينظر مثلاً: جميل صليبا: علم النفس: ٤٠٨–٤٠٩، ١٥٤–١٧٥ ود. عبدالعزيز القوصي: علم النفس أسسه وتطبيقاته التربويّة: ٣٣٣–٣٣٦.

موجود، وله أثره في جانب الصدق، وقد وقع الباحث على شيء من الاضطراب، في هذا المجال[1]..

---

(١) وقع الكاتب نتيجة للاعتماد على الذّاكرة في بعض المخالفات للواقع (أخطاء) وهي غير مقصودة ولامتعمّدة ولكن دفع إليها النسيان مثل:

- ذكر أن وفاة والدته كان في يوم: ٢٥/صفر/١٣٥٠هـ-١٤/٧/١٩٣١م (ينظر الذكريات جـ٢/٢٤٠) ثم ذكر بعد أربع عشرة صفحة أنها توفيت يوم الأربعاء ٢٢/صفر/١٣٥٠هـ (الذكريات ١٢٣/٢).
- يذكر في الحلقة (٥٨) جـ٢/٢٤٠ أنه بتاريخ ٢٩/أيلول/١٩٣٢م تلقى كتاباً إداريًّا من وزير المعارف يقضي بنقله إلى مدرسة (سقبا). ولكنه يعود في الحلقة التي تليها (٥٩) جـ٢/٢٥٠ فيذكر أن ذلك كان عام (١٩٣١م). والتاريخ الأول أصح -فيما ظهر لي- لأنه اعتمد فيه على وثيقة إداريّة مؤرَّخة.
- ذكر أنه في امتحان الحقوق كان يحصل على ترتيب (الأول) بين زملائه، ثم استشهد بصورة من الشهادة، وعلل لعدم كتابة الترتيب عليها بأن معهد الحقوق اكتفوا في الشهادة بثلاث درجات، هي: (جيد، حسن، ضعيف) (ينظر الذكريات ١٨١/٢) وعند مراجعة الصورة المنشورة في ملحق الصور وجدت بخط يده على الشهادة أنها ثلاث درجات: (جيد، ووسط، وضعيف) جـ٣١٦/٢.
- ذكر أنه أيام عمله في الكلية الشرعية بالعراق نحو عام ١٣٥٦هـ-١٩٣٧م قام العشماوي باشا -هكذا- وهو أحد كبار رجال التعليم في مصر بزيارة للكلية التي يعمل فيها الطنطاوي، وأنه قد أعدّ له استقبالاً خاصًّا (ينظر الذكريات: ٥٩/٤-٦٠) ثم اعتذر عن تلقيبه (بالباشا) لأنه لم يكن قد نال هذا اللقب ولكنه كان في تلك الأيام التي يتحدث عنها برتبة (بيك) وقد نبهّه إلى ذلك شخص أرسل إليه رسالة مهرها بتوقيع (أخ في الله) ٦١/٤.
- ذكر في موضعين قصة بنته التي كانت تتهيب الظلام، وكيف عالج الطنطاوي رهبتها تلك بالتجربة والإقناع. والمهم في الموضوع: أنه ذكر في الموضع الأول: أنه قد خرج بها إلى الحديقة وكانت هي تمسك بيدها الكشاف، وأنه هو الذي أمرها بأن تضيء مصباحه ليبدد نوره الظلام من حولها. (ينظر الذكريات: ٢٥٣/٦). وفي الموضع الثاني: أنه خرج بها إلى الحديقة وكان هو الذي يمسك بيده الكشاف، وأنه هو الذي أشعل مصباحه. (ينظر الذكريات: ٥/٨).
- وتعرض في موضعين من (ذكرياته) لمشهد هزّ وجدانه خلال تجوّله يوم العيد في ساحة (كمبير) بأندونيسيا إذ رأى على باب حديقة بالموقع عجوزاً فقيرة قد أمال ظهرها ثقل ما حملت من السنين وفي يدها طفلة كأنها الفلّة المتفتحة جمالاً وطُهراً، وكانت تنظر إلى الأطفال وهم يشترون أكف (الشوكلاطة) بعيون يلمع فيها بريق الرغبة المحرقه يعقبها خمود اليأس المرير... والشاهد: أنه في الموضع الأول: (١٢٢/٣) ذكر أنه اشترى لها أكبر كف من (الشوكلاطة) وذهب فدفعه إليها ثم انصرف... وفي الموضع الثاني: ذكر القصة بتفاصيلها ولكنه ذكر أنه اشترى لها أكبر كفٍ من (الشوكلاطة) فوضعه في حجرها وما في جيبه من مال.. (١٧٨/٦) وينظر أيضاً: علي الطنطاوي: في أندونيسيا ص٧٧-٧٩.

ومن سلبيات الذّاكرة أنها تعجز عن استحضار الحالة النفسية والشعوريّة كما كانت عليه وقت جريان الأحداث. وإن حصلت الاستعادة فإنما هي استعادة مبهمة ليس فيها رسوم أو صفات واضحة، فنحن نحزن في زمن ما لخبر ما، ولكن كيف كان هذا (الحزن) هل اختلط بمشاعر أخرى كحب ذواتنا أو إيثار غيرنا، أو غياب مَألُوف لنا... الخ. كُلّنا قاسى أطيافاً متفاوتة من المشاعر قُبيل أن يجلس على مقاعد الاختبار النهائي أيام الدراسة، فهل نفلح في استرجاعها بنبضاتها واختلاجها ورهبتها ونحن نشغل منصب وزير المعارف أو وكيل الوزارة، أو حتى حين نصبح مدرسين نضع بأنفسنا هذه الأسئلة التي كانت تُرهبنا يوماً ما.

إن (الاستعادة) – مهما كانت دقيقة – تكون من قبيل التصوير عن بُعْدٍ، تزداد نأياً كلما توغل الكاتب في مسارب الزمن، وابتعد زماناً ومكاناً عن الحادثة والموقف. ولو وُفِّق الطنطاوي إلى تسجيل ذكرياته في مذكرات مزامنة لتلك الأحداث والوقائع لنجح إلى حد بعيد في الاحتفاظ بصورة جيدة عمَّا أثارته في نفسه من أحاسيس ومشاعر وتطلعات، وذلك تفريطٌ منه يناصح كل قارئ بألاَّ يقع فيه:

«ليس لديّ أوراق مكتوبة أدوّن فيها الحادثة حين حدوثها، وأصف أثرها في نفسي، وهذا تفريطٌ كان مني، لم يعد إلى تداركه من سبيل، لذلك أوصي كُلّ قارئ لهذه الفصول أن يتخذ له دفتراً، يدون فيه كل عشية ما رأى في يومه، لا أن يكتب ماذا طبخ وماذا أكل، ولاكم ربح وكم أنفق، فما أريد قائمة مطعم، ولا حساب مصرف، بل أريد أن يسجل ما خطر على باله من أفكار، وما اختلج في نفسه من عواطف، وأثر ما رأى أو سمع في نفسه، لا ليطبعها وينشرها، فما كُلّ الناس من أهل الأدب والكتابة والنشر. ولكن ليجد فيها نفسه التي فقدها...»[1].

وقد ولّدَ هذا الإحساس في نفسه زهداً شديداً في كتابة (ذكرياته)، واستعادة حياته، وعرضها على الناس: بل أوشك هذا الإحساس أن يجوز به حدّ الزهد، إلى التشكيك في قيمتها، والفائدة من تسجيلها وروايتها، يقول وقد أوشك على الانتهاء من كتابة (ذكرياته):

---

(١) الذكريات: ٩/١.

«ما هذه الذكريات؟!

كان من رفاقنا الأقدمين أخ أُولع بالكيمياء، ينفق عليها ماله، ويضع فيها جهده، حتى برع فيها وصار من علمائها. كان يقطر العطر تارة فإذا دخلت معمله شممت منه رَيَّا روض أريج، أو جنّة فوّاحة الأزهار... أودعها قوارير يضع عليها أوراقاً يلصقها بها تُبيِّن الذي فيها.

ثم كبرنا ومَرّ دهر، وانصرف عن الكيمياء حتى ما يفكر فيها، وزرته يوماً فسألته أن يريني معمله، فقال: وماذا تريد منه؟ إنك لن تستطيع دخوله، فأصررت، فأخذني إليه؛ فإذا العنكبوت قد عشعش على بابه، والغبار قد تراكم فوق رفوفه.

ونظرت إلى تلك القوارير فإذا هي فارغة كلها، قد طار ما كان فيها. فجعلتُ أقرأ اسم العطر: عطر الورد أو الزنبق، أو الفل أو الياسمين، وما ثَمّ عطر ولاشيء يشبه العطر، وأقرأ أسماء حامض الكبريت، وما لستُ أدري ما هو وما بقي منه شيء. أما القوارير التي لم يلصق بها اسم ما فيها، فلم يعد يعرف أحد ما كانت تحتوي. هذا مثالي حين أكتب ذكرياتي، ذهبت المسرّات والآلام، وما بقي إلا صورة لها، فارغة منها فما فائدة كتابة الذكريات؟!!»[1].

ومادام النسيان آفة الاعتماد على الذاكرة، لأنه يتسلل إلى مخابئها فيقضي على ما استودعتْه إياها من أحداث وأسماء وأماكن ومشاعر وملابسات، ويُحدث بها ثغرات واسعة تفسد تماسك الوقائع وعلاقة الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج؛ فلابُدّ حينئذٍ – مهما بلغ الاحتفاء بالحقيقة – من ترميم ذلك القصور الذي يكتشفه الكاتب بعد المُضي في تدوين سيرته حتى تبدو متماسكة ومنطقية، ولاسبيل إليه إلا بالخيال، فتمتزج الحقيقة بكثير مما يتوهمه أو يتوقعه أو يخترعه ولو بحسن نيَّة وسلامة طويّة:

«إنني أرمِّمُها في خيالي وأصلحها كما يرمم البيت العتيق مالكه حتى يعيد إليه من بهائه ما يمكن أن يعود. كنت أنظر [إلى] الغرفة التي بقي نصفها فأراها ونصفها معها، ومع صاحبها نصفه الآخر من البشر: الزوج وزوجته، والجدران

---

(١) السابق: ٨/١٣٤–١٣٥ وتنظر نصوص أخرى: ١/١٥، ٢٤٩–٢٥١.

ساترة، والباب مغلق أراها وقد عادت الحياة إليها، ورجع إليها أهلوها، حتى إني لأسمع لغط صبيانها، وأحاديث نسائها وقرع قباقيبهن على بلاطها، مع أنها قد زالت الجدران، فانكشف المخبوء وذاعت الأسرار، وصار من فيها كأنهم يمشون في السوق بلا ثياب»[١].

ولكنه لا يلبث أن يُعَزِّي نفسه بأن الخيال أروع من الحقيقة، وبأن الفنّ أشهى من الواقع، وبأن وظيفة الكاتب لذكرياته، أقرب لوظيفة الفنان منها إلى المؤرخ، لأن الحياة قد انقضت ولم يبق إلا استعادتها وتمثيلها فيقول:

«وأنا أتحسّر دائماً على أني لم أدوّن هذه الذكريات، يوم كانت مشاهد ترى، لا ذكريات تروى... ثم أرجع إلى نفسي فأقول: لعل الصورة الجديدة التي أكتبها الآن، والتي أصلحَ الخيال منها بعض ما انطمس، وسطّر بعض ما امَّحَى، لعل هذه الصورة كاللوحة الفنية التي ترسمها ريشة الفنان، هل تعدلون بها الصورة الشمسيّة (الفوتوغرافية)؟»[٢].

والقياس هنا غير منضبط، لأنه لا يأخذ في الحسبان تباين الغرض، فالصورة الفوتوغرافية عند الوثائقي والمؤرخ وصاحب العمل العلمي البحت أولى وأعلى من الصورة الفنية، لأنها أقدر على أداء المهمة العلمية، وأكثر دقة أيضاً. والسيرة الذاتية تتطلب الصدق الواقعي كما تتطلب الصدق الفني؛ فالأول لأنه (الحقيقة) التي يُفتش القارئ عنها ويرجو من الكاتب أن يرشده إليها، والثاني لأنه الوسيلة التي تُؤدى بها الحقيقة، فمن حق الوسيلة أن تكون: قادرةً وموصلة ودالةً على الكاتب، وذلك لا يتحقق في الوسيلة اللغوية إلا إذا كانت تعبيراً أصيلاً نابعاً من تجارب صاحبه وثقافته وفكره وهمومه بعيداً عن التعبيرات الجاهزة المحفوظة، ثم إنه ليس هنالك من تعارض – بحسب فهمنا – بين الصدق الواقعي والصدق الفني، حتى يفاضل بينهما، أو يقدَّم أحدهما على الآخر، في مجال السيرة الذاتية.

---

(١) السابق: ٨/٤٦–٤٧.

(٢) السابق: ٧/٢٣٩.

وما يظهر من تألم الكاتب للحقيقة أو رثائه لها في النصوص التي استشهدتُ بها آنفاً، أو التي لا يتسع المكان لإيرادها؛ إنما هو – فيما أحسب – من قبيل تشاؤم (المثاليين) الذين يرتطمون بعالم يُصفّق جذلاً لتلك المثاليات ولكنه سرعان ما ينساها عندما ينهمك في حياته. فيرتد أمام عجزه عن تحقيق مثالية الحق الكامل حزيناً كئيباً متشككاً، وإلا فإن للصدق في الذكريات صوراً لا تخفى على الدّارس والقارئ تُنبئ عَمّا بَذله كاتبها من مجاهدة في تحري الحق، وانخلاع عن ذاته وأهوائه، وهو مظهر يحمل القارئ على احترامه واحترام كتابه، ويجعله لا يتردد في أن يعوِّل على ما يرد فيه من حقائق. أما الحق الكامل فشيء ليس في مقدور الإنسان، واللّه لا يكلف الإنسان فوق طاقته. ويكفي أن نعرف أن أحد فلاسفة القرن السابع عشر الميلادي، وهو (بوسويه *BOSSUET*) يذهب إلى أن التذكر في حدّ ذاته نشاط تخييلي، لأنه يقوم على استرجاع صور ذهنية لواقع انتهى واضمحل، يقول: «ليذهب الشيء الذي أنظر إليه من أمامي، ولتهدأ الضجَّة التي أسمعها، ولأنقطع عن تجرع الشراب الذي أحدث في لذّةً، ولتنطفئ النار التي كانت تُدفئني، وليعقب الحرارة – إذا شئت – إحساس بالبرودة، فأنا أتصور وأتخيل هذا اللون وهاتيك الضجّة، وهذه الحرارة، وتلك اللذة. فإذا عادت إليَّ في الظلام والسكون، صورة ما سمعت وما رأيتُ، لم أقل إني أراها أو أسمعها، بل قلت إني أتخيلها...»[(١)].

فليس الطنطاوي هو الوحيد الذي يحمل على عاتقيه جريرة العودة إلى الذّاكرة، فَيُنْفَى من سجل كتابه كل مشهد من مشاهد المجاهدة في الصدع بالحق والتجرّد والأمانة؛ لمجرّد أنه لم يوفق إلى تسجيل (مذكرات) قريبة من الأحداث. إن (التذكر) – عند الطنطاوي وغيره – نشاطٌ ذهني فيه من القصور والعجز ما في الإنسان نفسه من عجز وقصور. ولكن توجس الطنطاوي من الكذب، وهاجس الصدق الذي يلح عليه في كل آن، وحساسيته المفرطة، وأمانيه المغرقة في المثال هي التي جعلته يتشكك ويتساءل عن مستوى الصدق في (ذكرياته) و(فائدتها).

---

(١) ينظر: كتابه: معرفة الإله والنفس، فصل: (١) فقرة: (٤)، نقلاً عن: جميل صليبا: علم النفس: ٣٤٠.

رابعًا: من صور الصدق في الذكريات:

يحاول الدّارس في هذا المبحث الإلمام بما تيسّر له من النماذج التي تعكس بجلاء رغبة الكاتب الداخليّة في الصدق، وإبراز الحقيقة كما يعتقدها أو يعرفها للقارئ؛ لأن الحق المطلق ليس في مقدور الإنسان. وقد مال إلى جمع تلك النماذج – وهي انتقائية وليست استيعابية – تحت عنوانات جامعة لعدد منها. وكل عنوان منها يُعد مظهراً أو صورة منعكسة عن الرغبة في الصدق والحرص عليه.

وغني عن القول: أن الصدق مهما لَطُفَ وخَفَّ – ما لم يحتل له صاحبه ويلتمس له المداخل – لابُدّ أن يكون صريحاً، وطبيعة الصراحة فيه تجعله في نفوس المتلوِّنين ثقيلاً بغيضاً حارقاً. وتلك طبيعة الصدق، فالصدق إظهار لمخبوء يسعى أولئك إلى طمسه، أو نشر لفضيلة يجتهدون في تشويهها، أو وضعٌ لحق في نصابه، أو تعرية لزيف الباطل وهتك لأستار سُدّانه. ولذلك فاعتناق مذهب الصدق مركب صعب، وبقدر ما يورث صاحبه راحة في الضمير يرميه بصفوف من العداوة المتجددة غير المنقطعة، ويتسبب في إحراجه بين أهله وصحبه ومجتمعه، بخلاف المحاباة والمجاملة على حساب الحق، فإنها وإن أراحت الكاتب اجتماعيًّا، فإنها تؤرقه نفسيًّا، وتقلبه على ما هو أشد من حرِّ الجمر من لوم الضمير وتأنيبه في كل لحظة من لحظات يومه وليله؛ هذا إذا كان من أصحاب المبادئ النبيلة التي يحرسها ضمير حي. ولاشك أن هنالك علاقة وثيقة بين (الصدق) و(الصراحة) و(الإخلاص). وتصور صحيح إلى حدّ بعيد ما ذكره الطنطاوي في معرض حديثه عن صحيفة عارف النكدي: (الأيام) وتأثرها بنزاهة رئيس تحريرها وصدقه؛ حيث قال:

«... شيء انتقل إليها من أخلاق رئيس تحريرها. ذلك هو (الصدق) فلم تكن تغش قرّاءها وتكذب عليهم، ولا تُلبس لهم الباطل ثوب الحق. والصدق يجر (الصراحة) فكانت تسمي لهم الأشياء بأسمائها، لا تقول عن الحمار إن كان ذا مال أو ذا سلطان، إنّه غزال بأذنين طويلتين... بل تقول: إنه حمار.

والصدق يدعو إلى (الإخلاص) فلا تنشر إلا ما ينفع الناس، أو ترى أنّه ينفعهم، ولا يسخط اللّه»[1].

---

(١) الذكريات: ٨٦/٢.

وهذا القول ينطبق تماماً على الاتجاه نحو الصدق في الذّكريات، فالصدق في الذكريات قرين للصراحة والجرأة المتناهية في تعرية الباطل والجهر بالحق، وهو صدق ليس للصدق المجرّد فحسب – وإن كان ذلك من غاياته – ولكنّه صدق للعبرة والنصح، وتربية القارئ وجداناً، وتصحيح تصوراته عقلاً، أي أنه صدق لا يخدم الحقيقة فقط ولكنّه يخدم القارئ أيضاً لأنه يحترمه، ويكشف له ما يهمّه ويُخلص في توجيهه وانتقاء النافع له، وليس صدقاً للشتم ولا للتجريح ولا لهتك أستار اللّه عنه أو عن غيره من الناس.

أمّا بالنسبة لصور الصدق أو مظاهره فقد اعتاد الدارسون أن يبحثوا عنها في جانب واحد هو القدرة على الحديث عن المعايب والمناقص لأن النجاح في ذلك يُعدّ أقسى وأصعب؛ ولذا فهو أرفع درجات الصدق، وفي العادة أن من ينجح في ذلك ينجح في غيره، وإذا ما توسعت الدراسات ففي جانبين: الجانب السابق وجانب إطراء الذات، والباحث هنا يحاول دراسة هذا الموضوع وفق تصور أشمل، يرى أن للصدق صوراً أشمل وأعم، وأولى هذه المظاهر أو الصور:

١. الاعتراف/المكاشفة:

الاعتراف مظهر من أبلغ مظاهر الصراحة، يتخطى فيه الكاتب حواجز الصمت، فيفضي بما يستره الناس عادة سواءً من الأخلاق أو السلوك. «ولن يكون الاعتراف اعترافاً في رأي بعضهم إلا إذا كان اعترافاً بأمر يغلب على الناس إنكاره وكتمانه. فلا يفهمون من الاعتراف إلا أنّه إعلان لخبيئة في النفس تشين صاحبها وتدعو إلى إخفائها...»[1].

ولكن لفظة (الاعتراف) تحت وطأة النموذج (الاعتراف) الغربي والمفهوم النقدي الغربي اتخذت منحى خاصًّا إذ ارتبطت بشكل مباشر بالجهر بالمخازي

---

(١) العقاد: أنا: ٢٠٩ والعقاد حين يعرض هذا التصور عند (بعضهم) كما يقول – إنما يعرض له عرض من يَرُدُّه، لأنه يرى أن الاعتراف بالخصائص النفسية التي تدل الناس بعضهم على بعض أولى وأجدر (ينظر: أنا: ٢١٠).

والفضائح – لاسيما الجنسية منها – بكل صلافة وجلافة. مع أن الكلمة نفسها واسعة شاملة تشمل هذا النوع وسواه من أوجه النقص الذي يسعى الفرد إلى ستره وحفظه بعيداً عن الأنظار. بل إن الأستاذ أحمد أمين – رحمه اللّه – يراها – أي لفظة الاعتراف – أكثر اتساعاً وشمولاً، إذ يُفترض أن تشمل الحديث عن الفضائل والحسنات من غير تحرج أو مبالغة في التواضع[١].

ويؤكد نقاد أدب السيرة الذّاتية الغربيون على وجوب التعري التَّام عند كتابة السيرة، ويرونه رُكْناً مُهمًّا من الأركان التي تقوم السيرة الناجحة والممتعة عليها[٢]. وقد انساق أكثر نقادنا من العرب وراء هذه الرؤية دون تمحيص وتفكر، أو مراعاةٍ لما نشأت عليه المجتمعات العربية والإسلامية من قيم دينية وأخلاقية سامية وتقاليد اجتماعية محافظة تميزنا من غيرنا من الأدباء والنقاد والمجتمعات في الغرب. ونستطيع أن نتبين هذه النزعة المتغرِّبَة عند ناقدٍ كبير هو أنور المعدّاوي فقد كتب يقول: «حسبك أن كُتاب الاعتراف يقدمون إلى الناس صفحات من سجل الحياة سُطِّرتْ بمداد الصراحة والأمانة والصدق. صفحات عارية لا تكاد تتشح بغلالة واحدة من غلائل النفاق الاجتماعي، وتملق عواطف الجماهير. ولعمري إن الكاتب الذي يعرض أمام الناس فترة من فترات حياته بما حفلتْ من خير وشَرّ، من فضيلة ورذيلة، من لذّة وألم، دون أن يخشى في ذلك نقداً أو لوماً أو زلزلة لمكانته الأدبية والاجتماعية. هذا الكاتب في رأينا ورأي الحق رجل قوي جدير باحترام الأقوياء.

إن هناك كُتَّاباً يتظاهرون بحب الخير والتمسك بالفضيلة، وهم غارقون في حمأة الموبقات، فهل نستطيع أن نصف أدبهم بأنّه أدب قوّة؟! كلا... ولا نستطيع أن نرفع من قيمة هذا الأدب، إذا ما قسناه بمقياس الفن الصادق، مقياس صدق التعبير عن الحياة؛ لأنّه أدب يعبث بالحقائق ويشوِّه الوقائع، ويكذب على الحياة والناس»[٣].

---

(١) ينظر: فيض الخاطر: ١٩٦/٩ نقلاً عن: علي عبده بركات: اعترافات أدبائنا في سيرهم الذاتية: ١٦.

(٢) ينظر: أندريه موروا: أوجه السيرة: ١٠٩–١٢٧ ود. رودلف زلهايم: خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٢٧–٣٤ (مقالة – مجلة مجمع اللغة العربية).

(٣) نماذج فنية من الأدب والنقد: ١٢٠.

ويعلل المعدّاوي – بتحامل شديد – لِقلّة الاتجاه إلى الاعتراف وتعرية الذّات عند كُتّابنا بما نعيشه في مجتمعاتنا الشرقية من (تكتم) على الأسرار، ورغبة في نشر الفضائل ولو كانت لا تُعبر عن حياتنا الواقعية ولا تعطي صورة صحيحة لها[١].

ويوافق محمود تَيمور المعَدَّاويَّ، وهو يجمل أسباب عدم ازدهار فن السيرة الذاتية – بمفهومها الغربي بطبيعة الحال – في البيئة الشرقيه؛ فيقول: «نحن الشرقيين نحيا في دنيانا هذه، وعلى أخلاقنا وسلوكنا قناع غليظ، قَلّما نقول ما نعتقد، وقلّما نصارح بما نجد، وقلَّما نعبرُ عمّا تطويه السرائر.. كلنا متستر [يداجي][٢] ويوارب، ويظهر على غير حقيقته.. منَّا من يتخذ مُسوح الأخيار والزّهاد، ويبدو في سمت المثاليين الأبرار، وربّما كتم أمر نفسه عن نفسه خداعاً عن نفسه لنفسه، وفراراً بوجهه عن وجهه، فنحن أمام ضعفنا الإنساني ضعفاء عن أن نعترف به، نجاهد في أن نظهر في ثوب البراءة والطُّهر، على رؤوسنا أكاليل من بطولة الفضيلة لكي نستطيع أن نلائم ذلك المجتمع المنافق الكذوب الذي نعيش فيه»[٣].

والباحث يستطيع أن يفهم هذه الدعوة إلى التعري بالاعتراف الفاضح لدى الغربيين كُتّاباً ونُقّاداً، بصفتها – فيما يعتقد – امتداداً للتصور الكنسي للتطهّر من الشوائب والأخطاء التي تعلق بالإنسان خلال رحلته في الحياة، تسرَّبَ إلى الفكر الأدبي. إذ تُلجئ التعاليم الكنسية (المحرفة) معتقدها عند الحاجة إلى التخفف من أعباء الحياة والتخلص من الأدران المعنوية إلى التعري التام على كرسي الاعتراف أمام القسيس، حيث يبوح بكل ما قارفه من ذنب أو خطيئة، أو ارتكبه بحق الإنسانية أو الكون. وبمقدار ما تتسم به اعترافاته من جرأة وشمول واستقصاء؛ تتسع صكوك الغفران التي ينالها لتحمل عنه أوزاره؛ فيعود وقد دفع عن نفسه تأنيب الضمير، وجلب لها الراحة والطمأنينة. وكيف لا يشعر بذلك وقد استطاع أن يتغلب على نفسه ويقتطع صكاً برضا الرب وتجاوزه عما اكتسبه من الآثام!! – تعالى اللّه عما يفعلون.

---

(١) يذكر السابق: ١١٨–١١٩.

(٢) في الأصل: (يهاجي) وأظنه خطأً مطبعيًّا.

(٣) نقلاً عن علي عبده بركات: روّاد السيرة الذّاتية من إفرنج وعرب: ١٦٤ (مقالة – مجلة العربي).

والذي أعتقده أن النصرانية الصحيحة مُبَرَّأة من عقيدة الاعتراف[١]؛ لأن الدين الصحيح يسعى إلى توثيق الصلة بين العبد وخالقه دون وساطة ولا ترجمان. ويظهر لي – أيضاً – أن عقيدة الاعتراف فكرة دخيلة على الديانة النصرانية اُتخذت وسيلة من وسائل الكنيسة للسيطرة على المؤسسات العامّة في المجتمع وتوجيهها من خلال إحكام قبضتها على الأفراد ومصائرهم بما تعرفه عنهم من أسرار يشينهم ويؤلمهم أشدّ الألم ظهورها.

ولمّا كانت المجتمعات الغربية تعيش في حضارتها الماديّة ألواناً من الإباحيّة الغرائزيّة والتفكك الأسري، وضعف للوازع الديني فقد انساقت وراء المتع والملاذ، وحين يأتي أحدهم ليكتب سيرته الذّاتية، ويجلس مع نفسه يشعر بوخز الضمير وتأنيبه على كل ما فعله في أيامه الخالية. لذلك يتجه دون شعور إلى تعرية ذاته للشمس ليتطهر بأشعتها الحارقة اللاذعة من أدرانه الماديّة والمعنويّة.

ولكن الذي لا أَستطيع فهمه ولا تقبله تلك الدعوات المكشوفة من قبل بعض نقادنا وأدبائنا إلى احتذاء النموذج الغربي في الاعتراف، كما لا أستطيع فهم تلك النزعة الغريبة إلى المقارنة بينه وبين ما يشيع من ضروب الاعتراف المحافظ في سيرنا قديماً وحديثاً.

وقد فطن بعض الدارسين إلى ملمح مهم في هذا الصدد هو: أن ثمة فارقاً مهماً بين الأديب المسلم وغير المسلم في مجال السيرة الذاتية لم يُعْنَ ببيانه مؤرخو فن السيرة ونُقادها[٢]، ثم يستثني واحداً يُعدّ من كتابها وليس من نُقّادها، وهو: أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري. ولا يستغرب ذلك من هذين المهتمين الكريمين – وهما من أبناء الثقافة العربية الأصيلة – أن تتكامل لهما أسس التصور الصحيح

---

(١) تحدث الشيخ: محمد أبو زهرة عن: مبدأ الاعتراف في العقيدة النصرانية وصكوك الغفران، راجع كتابه: محاضرات في النصرانية: ٢٠٨–٢١١، ٢٢٥–٢٢٧.

(٢) ينظر: عبدالله الحيدري: في تباريح ابن عقيل الظاهري.. شجاعة في الاعتراف وتنظير موفق في فن السيرة: ٨٤ (مقالة – المجلّة العربية).

والقياس السليم. أما أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري فهو إلى أنه أديب وناقد: فقيه مشارك واسع الاطلاع يحمل شهادة عاليةً في العلم الشرعي[١].

ويرى أبو عبدالرحمن بن عقيل في صدر: (تباريح التباريح) أن «الاعترافات لها تيارات في الشرق والغرب:

– تيار عند الشرقيين كُلّه فاضل لأن سير أهله فاضِلة كحديث ابن تيمية عن نفسه وصراعه العلمي. وقد تكون اعترافاتٌ لا تتعدى اللمم وعما قبل الحلم، كما في طوق الحمامة لابن حزم. وفي نصاب ذلك اعترافات الصوفيّة والزّهاد في حكاياتهم عن تجاربهم النابعة من فيوضاتٍ إلهية.

– وتيار عند الغربيين يجهر بالسوء ويتبجح بالفضائح ويحكي ما يندى له الجبين. وأقبح وأحدث ما قرأته من اعترافاتهم اعتراف برتراند رسل في سيرته الذّاتية بأنّه كان يقلب وجهات النظر مع خادمه، وذلك كناية عن تبادل عمل قبيح»[٢].

وينتهي ابن عقيل إلى أنه «يُفترض في كاتب السيرة الذّاتية أن ينقل الحقيقة عن حياته، والواقع الذاتي لنفسه وبيئته من خلال الأحداث الخارجية... إلا أن هذا المطلب عسير جدّاً قد يكون مُتعذّراً – وذلك أكثر من مُتَعَسِّر – عند الشرقي المسلم الذي أوصاه رَبّه بالستر على نفسه إذا ضعف، وأن يطلب الستر من ربِّه في حياته ويوم يقوم الأشهاد»[٣].

ولذلك فأبو عبدالرحمن بن عقيل لا يودّ أن يكون إِمَّعةً ينساق وراء كل صارخ، ولكنّه يُوطّن نفسه على المضي فيما لا يمس دينه من سُبل القول والكتابة المشروعة في الحديث عن الذّات يقول: «ولقد اجتهدت في التباريح أن أسجل ذكرياتي بأمانة إلا ما لا يحل الجهر به، لأن اللّه لا يحب الجهر بالسوء، ولأن اعترافات النصارى ليست من ديننا»[٤].

---

(١) ينظر: تباريح التباريح: ١٢٥–١٢٦.

(٢) السابق: ٦–٧.

(٣) السابق: ٧.

(٤) السابق: ٤.

وإذا كان المستشرق الألماني الدكتور (رودلف زلهايم) يعترف بما وصل إليه الغربيون من انتكاسة أخلاقية في مجال الحديث عن النَّفس، ويؤكد في الوقت ذاته صعوبة التخلي عن ذلك المَنْحَى لطبيعة الشعب الغربي قائلاً: «إننا ليصعب علينا – نحن الغربيين – أن نتصور أنفسنا في موقف المسلمين هذا، فلقد فقدنا في عصرنا الحاضر هذا الحسَّ المرهف، وتفشَّت لدينا غوغائية لا تُقدِّر ولا ترعى حرمة الأدب والاحتشام والحياء»[١] فإنني أرى أن السيرة الذاتية لا يمكن أن تكون أدباً معبراً عن قضايا وحياة الأديب المسلم إلا إذا كانت فَنّاً رفيعاً يُرضي المشاعر النبيلة، ويرتفع بالأحاسيس البشرية إلى مستوى الطهر الإنساني. وليس معنى ذلك أننا نفترض المثالية في كل كاتب يتحدث عن نفسه، بل معناه أننا نفترض فيه أن يكون قاضياً عادلاً، يرى الفضائل فيحبذها ويشيد بها، ويرى الرذائل فيعترف بخطئها، ويشرئب إلى حياة كريمة تتجنبها، وإذ ذاك يكون صاحب الترجمة الذاتية فنّاناً ينشد ارتقاء البشريّة، ويحلم بازدهار السعادة الشاملة للفرد والمجتمع[٢].

ولذلك فإن الانسياق أو (الانقياد) وراء الدعوة إلى التعري الخالص على إطلاقه أمر مرفوض، وينبغي أن يراجع نقادنا وأدباؤنا الموقف منه، ليس في السيرة الذاتية وحدها بل في الرواية والقصة التي تموج بالمشاهد المُخلَّة بأمانة الكلمة الطيبة تحت أي شعار كان ولو كان الواقعية والحريّة التعبيريَّة.

وللسبب نفسه فإن الباحث لا ينتظر من الطنطاوي – وهو الفقيه الأديب – الاعتراف على الطريقة الغربية ولا ينتظر منه ذلك؛ لأن هنالك فرقاً بيّناً بين الجرأة والصراحة وبين التعري الفاضح والوقاحة. ولعل هذا ما قصده الطنطاوي حين قال للباحث:

«أنا قد كتبت ذكرياتي فعلاً، وأنا المسئول الوحيد عن كل كلمة فيها. ولكني لم أكتب اعترافاتي»[٣].

---

(١) خواطر حول الترجمة الذاتية في العصور الإسلامية: ٢٩ (مقالة – مجلة مجمع اللغة العربية).

(٢) ينظر: د. محمد رجب البيومي: منهج الأدب الإسلامي في السيرة الذّاتية: ٧ (مقالة – مجلة الأدب الإسلامي).

(٣) في مقابلة معه مساء الخميس: ١٤١٦/٥/٢٥هـ. (منزله – جدّة).

وقد أشار الباحث فيما مضى إلى أن الطنطاوي لم يتعرض نظريًّا لموقفه من عرض معايب الذّات ومناقصها في ذكرياته[١]، ولكنه – فيما يظهر – يتفق مع الباحث في موقفه من الاعتراف المتحرر من القيد الأخلاقي. فهو يرى أن: «**مُقارفة المنكر جريمة أخلاقية، والحديث عن مقارفته، ووصف الوقوع فيه جريمة أكبر منه**»[٢] ويعلل ذلك بأن «**في الأول فساد فرد وفي الثاني إعلانٌ عن الفاحشة، وهو فساد أمّة**»[٣].

ولسبب ثانٍ هو أن الطنطاوي قد ربي في بيت علم ودين ومروءة، وفي مجتمع مسلم محافظ، فكانت تربيته، وما يراه من حوله من صور المحافظة والاستقامة خير معين له – بعد توفيق اللّه وحفظه – على الاستقامة، واجتناب زلاّت المزالق:

«**لم أنصب في عمري شبكة لفتاة (صدقوني) ولا أوقعت حسناء يوماً في شرك**»[٤].

فكيف ننتظر منه اعترافات أدبية ساخنة على الطريقة الغربية تصف لنا علاقاته الغرامية أو اتصاله بالمرأة أو إسفافه أو... أو... أو.. إلخ؟!! إلا أن يكون (الاعتراف) فنًّا مطلوباً في حدّ ذاته ولو اختلفت بواعث الكتابة، ولو كان الاعتراف كذبًا وادعاءً محضًا، وهذا غير صحيح!!

ومادام هذا واقع استعمال مصطلح (الاعتراف/الاعترافات) فإن الباحث يتحفظ بشأن استعمال هذا المصطلح (الاعتراف/الاعترافات) فيما يتعلق بالنموذج الذي تقدّمه ذكريات علي الطنطاوي، ويتجه نحو: **التماس نموذج مغاير للاعتراف: تصنعه الثقافة، وتجود به السير التراثية والحديثة في الأدب الملتزم بالقيم الأخلاقية والدينية**، وتحديد ضابط يُسهل ويسوغ انتقاءه، ويعين على تحديده وتمييزه، ومن ثَمَّ تتيسر قراءته ومعالجته[٥].

---

(١) ينظر مبحث: الالتزام بالصدق في الذكريات، بهذا الفصل.

(٢) في مقابلة معه: مساء الخميس: ١٤١٦/٥/٢٥هـ (بمنزله – جدّة).

(٣) المقابلة السابقة.

(٤) الذكريات: ٢٧/١.

(٥) لكونهِ يختلف عن الاعتراف بمفهومه الغربي في فن السيرة الذاتية، ولكونه يختلف عنه بالنظر إلى كتابات كثير من السيريين العرب. والبحث عن هذا النموذج، ودراسته، والتنظير له ليس أمراً مقحماً، بل هو من صميم مهامِّ الدراسة ؛ فالنموذج موجود بسمته المغاير، ثم إن في الكشف عنه خطوة قويّة لمعرفة رؤية أدب وأدباء.

والضابط فيما أتصور لابد أن يقام على ثلاثة أركان:

الأوّل: أن يكون مظهراً من مظاهر العجز والضعف والنقص.

الثاني: الصراحة والجُرأة (أي أنه يتجاوز الحديث العادي عن النفس).

الثالث: الخروج عن العرف والإلف.

ويتحدد الخروج عن العرف والإلف بالاعتماد على المفاهيم الاجتماعية ومواضعات الناس، وذلك يختلف باختلاف:

– المجتمع والبيئة.

– المكانة التي يتبَوَّأُها المعترف: حديثاً أو كتابةً.

فما يُنظر إليه في بعض المجتمعات على أنّه من المظاهر اليومية العادية، أو من ممارسة الحريّة الفردية؛ فإن الحديث عنه في مجتمع محافظ كالمملكة العربية السعودية قد يُعدّ اعترافاً صريحاً جريئاً بشيء يرى المجتمع وجوب ستره وكتمانه. كأن يقول كاتب بمنزلة الطنطاوي عن نفسه: إنه ممن يحضرون الحفلات الغنائية، أو يداوم على متابعة العروض السينمائية، أو ممن يغشى المقاهي. فهذا لو أفضى به شخص من خارج الجزيرة العربية لما وصفناه بأنّه اعترافٌ لأنه شيء مألوف ومعروف، ولكن مجتمعنا المحافظ بالجزيرة ينكر ذلك ويراه خروجاً على مواضعاته.

ومن المفارقات التي تؤكد أهمية العرف الاجتماعي في تصنيف الحديث إلى اعتراف أو إلى غيره، أن المقاهي في بعض البيئات العربية كمصر مثلاً يكون غشيانها شيئاً طبيعيًّا تماماً، بل إنه قد يستدل به على المنزلة الأدبية الرفيعة، وعلوّ الكعب في الفن أو الأدب أو المعرفة، لأنها – ولاسيما المقاهي المشهورة – أشبه ما تكون بالمنتدى الأدبي الذي يحضره كبار الأدباء وأصحاب المكانة في المجتمع إذ يتجاذب فيه الجميع أطراف الحديث بشيء من (الانبساط) والحريّة. فإذا كان المعترف ذا وجاهةٍ في مجتمعه أو منزلةٍ خاصة لاسيما حين ترتبط هذه الوجاهة بأسباب الوقار والالتزام الديني كأن يكون عالماً شرعيًّا، أو واعظاً أو خطيباً أو مفكراً أو مربِّياً أو مسئولاً؛ ضاقت أمامه فرص البوح بالحديث العادي، وقد تُعدّ

بعض أحاديثه التي تُتَلَقَّى من غيره على أنها كلامٌ عادي لا يثير أية مشاعر بالسخط أو عدم الرضا، قد تعد من قبيل الاعتراف، فما يُقبل من المحكوم قد لا يقبل من الحاكم، وما قد يأتيه العامي العادي قد يشين الخاصي والعالم غشيانه وفعله والنسبة إليه. فما ذكره ابن حزم الظاهري – رحمه اللّه – عن تجربته مع الحب ومعاناته من الهجر في كتابه (طوق الحمامة) يعد من قبيل الاعتراف على الرغم من أنّه ليس فيه جهر بكبيرة أو منكر شنيع[١]، وذلك لمكانة ابن حزم فهو عالم وفقيه ورجل دولة، وأكبر دليل على ذلك أنّه قد بدأ رسالته معتذراً واختتمها بباب في (قبح المعصية) و(فضائل التعفف)؛ ليبرئ ساحته من الظن السيئ[٢]. وكذلك ابن الجوزي رحمه اللّه فقد عرض لأمور يمكن أن نَعُدّها من اعترافاته لأنها قدمت لنا جانباً من جوانب الضعف فيه، لم نعتد سماعها أو قراءتها من فقيه وواعظ مثله[٣].

ومثل ذلك حديث أحمد أمين وهو الرجل الوقور الرزين عن المشاجرة التي حصلت بينه وبين سيدة أثناء ركوبه عربة (سوارس) وكان قد مسها بجسده دون أن يشعر[٤]. وحُبّه لابنة جاره وهو صبي في نحو الخامسة عشرة[٥]، ثم تعلقه البائس بمدرسته الإنجليزية[٦]، وما يذكره من تردده في بعض الأحيان على صالة (منيرة المهديّة) لسماع غنائها ومشاهدة مسرحياتها[٧]... الخ. ومن هذا القبيل اعترافات الشيخ أبي عبدالرحمن بن عقيل بشغفه بالموسيقى واستماعه للغناء والانهماك في

---

(١) الكتاب بأكمله يصلح للتمثيل، ولكن تنظر الأبواب التالية: (من أحب صفة لم يستحسن بعدها ما يخالفها)، (البين)، (المساعد من الأخوان)، (السلو)، (الوصل)، (الهجر).

(٢) ينظر طوق الحمامة: ٥٣–٥٤ و٢٦٨، ٣٠٢ وعقب قائلاً في خاتمة كتابه: (وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين... تأليفي لمثل هذا، ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أُحل لأحد أن يَظن في غير ماقصدته...) ص٣٢٢ (تحقيق المحامي فاروق سعد).

(٣) ينظر: صيد الخاطر: في مواضع متفرّقة مثلاً: ٧٧–٧٨، ١٣٩، ١٧٤–١٧٥، ١٨٣–١٨٤، ١٨٧–١٨٨، ١٩٨. (تحقيق وتعليق: علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي).

(٤) ينظر: حياتي: ١٧٤–١٧٦.

(٥) ينظر: السابق: ١٨٧.

(٦) ينظر: السابق: ١٥٩–١٦٠، ١٨٧–١٨٨.

(٧) ينظر: السابق: ١٦٨.

الفن[١]، وكثرة السهر والسمر في ليالي رمضان[٢]، وإدامة شرب الدخان[٣]. فهذا وأمثاله من الحديث لا يثير في النفس شيئاً من الاستغراب والاستنكار، ولكنّه حين يصدر من مثل هؤلاء الأعلام فإنه – لما يتبَوَّأونه من مكانة وما يتصفون به من سمات – يأتي في حرارة الاعتراف؛ لأنهم يكابدون في سبيل البوح به كثيراً من المشقة سواء كان ذلك بالنسبة إليهم أو إلى مجتمعهم الذي يتقلبون فيه. يقول الحيدري: «وقد يكون شأن التدخين غير ذي بال عند كثير من الناس في هذا الزمان، فلا يبالون به. بل إن بعض القّراء قد لا يرون في حكاية ابن عقيل لهذه التجربة أي شجاعة، لكن العارفين بمكانة أبي عبدالرحمن في مجتمعه، ومؤهله التعليمي، وإسهاماته الدينية في الإذاعة وغيرها سيدركون حتماً أنه كان جريئاً وصريحاً في روايته لهذه التجربة الشاقة، التي خرج منها ولله الحمد منتصراً»[٤].

وتأسيساً على هذا الفهم – الذي أرجو ألا أكون قد غاليت فيه كثيراً – يستطيع الباحث، والقارئ أيضاً أن يتعامل مع نصوص السيرة الذّاتية الشرقية المحافظة، ويستطيع أيضاً أن يصنف ما جاء في الذكريات من قبيل الاعترافات، ويفصل بينه وبين ما ينتمي إلى الحديث العادي أو حتى الساخن، والذي ليس له ما للاعترافات من الجُرأة والنَّفاذ من رُواق المواضعات.

– ألوان من اعترافات الطنطاوي:

كثيرة هي النصوص التي كشف فيها الطنطاوي عن شيء من أسراره، أو صفاته التي يحاول أكثر الناس إخفاءَها وكتمها. وتتميز نصوص الاعترافات عند الطنطاوي – بعامة – بأنها ليست مقصودة في حدّ ذاتها بل تأتي على سبيل الاستطراد أو الوعظ أو التحدث بنعمة اللّه إذ نجاه من النقص، أو تأتي في معرض السخرية والتفكه، أو لخدمة الفكرة التي يتحدث عنها الكاتب؛ إذ يصبح النص

---

(١) ينظر: تباريح التباريح: ٧٨، ١٢٠.

(٢) السابق: ١٠٥.

(٣) ينظر: شيء من التباريح: ١١٣–١١٩.

(٤) عبداللّه الحيدري: في تباريح ابن عقيل الظاهري.. شجاعة في الاعتراف وتنظير موفق في فن السيرة: ٨٤ وما بعدها (مقالة – المجلّة العربية).

الاعتراف في وسيلة من وسائل تقرير الفكرة أو شرحها أو بيان قدرها، وهذا مما يساعد الكاتب على المضي في اعترافه، لأنه يستحضر الفكرة أو الموضوع الذي يريد أن يدلل عليه أو يشرحه أو يقربه للأذهان وينسى أنه (يعترف) ويقدم ذاته إلى القارئ. كما نجد في النص التالي:

«علّمونا ونحن صغار أن الولد المهذّب، هو الذي لا يرفع بصره عن الأرض، إذا كان مع الكبار، وإذا قعد معهم ضم أعضاءه بعضها إلى بعض، وأحنى رأسه، ولم يتكلّم حتى يُسأل، وإن سُئل خفض بالجواب صَوْته، وكلما نطق جملة أعقبها بقوله (سيدي)، وإن قابل كبيراً قَبّل يده ورفعها إلى جبينه. ثم تعلمنا في المدرسة أن المسلم أبداً يكون عزيز النفس، مرفوع الرأس، جريئاً: إن تكلّم أسمع.

أي أنهم وجّهونا وجهتين متعارضتين، فكان عليَّ أن أمشي للوراء؛ وأنا أتقدَّم إلى الأمام، وأن أصعد نازلاً وأنزل صاعداً. وكُنّا في ذلك صورةً عن عصرنا؛ فلقد كان – كما قلت مرّات – عصر انتقال من حال إلى حال، مرّ به أو بمثله العرب لما حملوا الإسلام ففتحوا به البلدان، ومرّ به الرومان لمّا أخضعوا أمّة اليونان، ولا تزال الأمم تمرُّ بمثله في كل زمان ومكان.

كُنا في عزلة عن أوروبّا، عزلة ماديّة وفكريّة، ولم نشد حضارة مثل حضارة أجدادنا، ولم نقتبس مما شاد غيرنا. كان بيننا وبينهم باب، ولكنّه لم يكن محكم الإغلاق، بل كان فيه فرجة يدخل علينا منها بعض الجديد، فكان ممن سبقونا قليلاً من نال نصيباً، كان يعد يومئذٍ كبيراً، من جديد أوروبا...

فلمّا كانت الرَّجة الكبرى ١٩١٤م حرّكت هذا الباب بيننا وبينهم، فَلَمّا انتهت الحرب سنة ١٩١٨ فُتح الباب على مصراعيه. ومن هنا ظهر في مجتمعنا الازدواج في أساليب الحياة، وفي طريق التفكير، وفي كثير من المظاهر. وكُنّا نحن الذين تلقوا منه الصدمة الأولى، لأنني وأمثالي كُنّا في سنة ١٩١٨ في أواخر المدرسة الابتدائية. فمن هنا ما ترون من الازدواج أحياناً في تفكيري وفي سلوكي: ما بين محافظة على القديم وتمسك به.. ودفاع عنه، وأخذ بالجديد وحماسة له. وما بين اشتغال بالعلوم الأزهرية من الفقه والحديث والتجويد وأخواتها وإقبالٍ عليها، وملازمة لعلمائها، ومن حرص على الأدب وعناية به، وتتبع لقديمه وجديده، وأساليب أهله ومذاهب نُقاده.

حتى نتج عن ذلك أنهم لمّا أنشؤوا في مصر والشام أيّام الوحدة لجاناً ومؤسسات للأدب، نثره وشعره أقصوني عنها، وقالوا: هذا شيخ فقيه، ولمّا ألفوا المجالس الفقهية أبعدوني عنها، وقالوا: هذا رجل أديب!!»[١].

والكاتب استعمل ضمير المتكلمين (نحن – نا) ليتخفف من وطأة الاعتراف باستعمال (أنا)، ولم يلبث أن انفتل بخفة إلى ضمير المتكلّم متخفياً وراء أثر المرحلة الانتقالية في الأفراد وهو ما شغل به انتباه القرّاء عن ذاته. وتبرز في النص السابق قدرة الكاتب على التحليل والتعليل، وبراعته في الخروج من العام إلى الخاص.

وتتعدد مشاهد الاعتراف عند الطنطاوي بتعدد جوانب الشخصية وسماتها؛ فمن الاعتراف ما يمس الجانب الجسدي، ومنها ما يمس الجانب النفسي والأخلاقي ومنها ما يتصل بالجانب الاجتماعي، ومنها ما يتصل بالسلوك أو العاطفة أو مناشط الشخصية بعامة... ولذلك فمن المتعسر على الباحث حصرها فضلاً عن ذكرها والاستشهاد بها. ولكن ينتخب منها ما تيسر له وقرب متناوله، ويحيل القارئ إلى النص ليراجعه بنفسه – إذا شاء – في مكانه. ولا يستثني من ذلك إلا بضعة شواهد رأى الباحث عرض نصوصها لتقديم نماذج حيّة للاعتراف.

وأول هذه الجوانب: الجانب الجسدي. فقد أفاد أنه كان قصير القامة يتحرج إذا ما ساير من هم أطول منه، ويحرص على أن يكون بعيداً عنهم إذا ما جمعته بهم المناسبات حتى لا يفتضح أمره وتشيع بين الناس صفته[٢]. وذكر أنه أصيب بعِلّة في (موضع يجب ستره) اضطرّته مراراً إلى أن يأتي أفعالاً محرجة وغريبة[٣]، وأخبر القارئ بأنه: كان يعاني من خلل في جهازه النطقي أورثه عيباً ملازماً عند الجهر بحرف (الراء)، إذ يلثغ بها قريباً من لثغة واصل بن عطاء المشهورة – كما يقول[٤] – وقد جاء ذلك في معرض حديثه بنعمة اللّه عليه أن هداه إلى تَعَلُّم القرآن وإتقان

(١) الذكريات: ٤/٣١–٣٢.

(٢) ينظر: السابق: ٤/٢١٤–٢١٥.

(٣) ينظر: السابق: ٤/٢٣٣–٢٣٤ و٨/٤٣.

(٤) ينظر: السابق: ٤/١٢٢.

تلاوته وتجويده. ولكنّه لم يغفل هذا العيب فيه، حتى لا يرسم للقارئ صورة غير صحيحة عن إجادته للتلاوة وإتقانه لها.

ومن اعترافاته التي تمس الجانب النفسي والأخلاقي من شخصيته: وصفه لذاته بطول اللسان، وسرعة الإجابة لداعي الهجاء، فكما يُحيِّي من يُحييه يَشْتم من يشتمه، لأنّه قادر على المهاجاة، وكيف لا يكون كذلك وقد حفظ نصف ما قالته الشعراء في فن الهجاء[١]. ويُرجع قدرته على الجمع بين الوظيفة والتدريس والدِّراسة في وقت واحد – مع أنه مخالفة صريحة للنظام – إلى خوف المسئولين من حدّة قلمه وطول لسانه[٢].

واعترف بأن الغرور قد عرف طريقه إلى نفسه في فترة من فترات حياته، وكيف لا يصيب الغرور – كما يقول – شابًّا صار له اسم في البلد، وزعامة في الشباب، ووزن في الأدب، وهو لم يجاوز الرابعة والعشرين؟![٣].

ويذكر – أيضاً – أنّه كان يحتال على أساتذته في كلية الحقوق ليحصل على إشارة الحضور (الميم) بالمديح والمجاملة تارة وبالتهديد تارة أخرى، ويستغفر اللّه من هذا الذي كان[٤]. وكان أثناء إقامته في مصر وإشرافه على مجلة (الرسالة) بأمر من أستاذه الزيات يعقد ما يشبه المنتديات الأدبية في دار (الرسالة)، ويعترف للقارئ بأنه كثيراً ما كان يخلق المناوشات الفكرية والأدبية بين الحضور[٥]، واعترف في مواضع عدّة بالخوف الشديد[٦].

أما في الجانب الاجتماعي: فيذكر أنه رجل معتزل لا يزور أحداً ولا يزار إلا من خاصة أهله وأصدقائه، وأنه لا يجيب دعوات الداعين إلى الطعام أو المناسبات

---

(١) ينظر: السابق: ٣٢/٤–٣٤ و١١٤/٥.

(٢) ينظر: السابق: ١٨٢/٢.

(٣) ينظر: السابق: ٢١٢/٢.

(٤) ينظر: السابق: ١٧٩/٢–١٨١.

(٥) ينظر: السابق: ١٣٣/٧.

(٦) ينظر: السابق: ٨٩/٣، ٣٠١–٣٠٢ و١١٩/٤.

ويسوّغ ذلك بأنه ليس مخالفة عن سنة الرسول...، ولكنه فعل ذلك لمناسبته لحاله، والاستعانة به على إنجاز أعماله، وحفظ وقته، ولو أنّه أجاب كل دعوة واستقبل كل قادم، وودّع كل مسافر، وهنّأَ كل مسرور، وعزّى كل مصاب، لما كتب شيئاً ولا خطب ولا حاضر، ولا وجد وقْتَاً للمطالعة والمراجعة.. ويستغفر اللّه من ذلك[١]. وفي المقابل يذكر عن نفسه أنه لا يفتح باب داره لكل طارق[٢].

ويعترف في الجانب العلمي والأدبي من شخصيته بأنه: كثير التسويف في إنجاز أعماله ومشاريعه، يؤخر كل عمل إلى آخر وقته ثم يقوم مسرعاً يعدو كالمجنون. وقد ترك الحكمة العربية الصحيحة: (لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد)، وأخذ الكلمة الحمقاء للكاتب الفاسق أوسكار وايلد: (لا تؤخر إلى غد ما تستطيع عمله بعد غد). ويرى أن التسويف قد ضيع عليه خيراً كثيراً في الدنيا[٣].

ومن ذلك اعترافه بأن الفلسفة قد جَدّدت فكره ووسّعت أُفقه، وأثّرت في تكوينه المعرفي والعقلي والنفسي أثراً لا يمحى، ولكنها كادت تفتنه عن الحق والدين[٤]. وذكر في معرض حديثه عن تدريسه في الكليات والمعاهد في الرياض (جامعة الإمام محمد بن سعود حاليًّا) أنه لم يكن ذلك العالم المتخصص المدقق المحقق للمسائل الفقهية، بل هو مثقفٌ واسع الثقافة أو رجلٌ موسوعيٌّ – كما يقال بلغة العصر – أخذ من كل علم بطرف، ولهذا كان بحاجة إلى المراجعة والمطالعة وتحقيق المسائل[٥].

ويقرّ على نفسه أنه كان حين يدخل في معركة أدبية أو فكرية – أيام شبابه – لا يتجه إلى الفكرة يبين فسادها، ولا التعبير يشير إلى ضعفه وإلى خطئه، ولكن كان يتجه اتجاه أُستاذيه العقاد والرافعي: يكثر الهمز واللمز، ويترفع عمّن يحاوره، ويتعالى عليه بالدعوى العريضة، ويستصغره، ويسخر به ويسبه ويشتمه،

---

(١) ينظر: السابق: ٢/٢١٦–٢١٧.

(٢) ينظر: السابق: ٧/١٥٢.

(٣) ينظر: السابق: ٢/١٨١ و٨/٣٣٧.

(٤) ينظر: السابق: ٢/٢٦٤.

(٥) ينظر: السابق: ٨/٢٠٧–٢٠٨.

ويذكر معايبه ومثالبه. وهو على التحقيق لا ينقد بل يهجو، وله في هذا الأسلوب كتابات كثيرة مُعدّة لتكون كتاباً كبيراً عنوانه (مناظرات وردود) ولكنه زهد في طبعه لِعُزُوفِه عن ذلك الأسلوب وكراهته له[١].

ويصارح قارئه بشجاعةٍ بأنه قد كان يكتب في بواكير حياته الصحفية في مجلة (ألف باء) عن أفلام السينما فصولاً قصاراً، هي وسط بين تلخيص القصة ونقد التمثيل[٢]. وقد شعر بثقل ما جهر به على نفس القارئ، وخشي على مكانته عنده، فانصرف يخفف من حِدة هذا الاعتراف بإخبار القارئ بأن تلك المقالات – على مباشرتها الفن – ما كانت تخلو من نصيحة أو موعظة مؤثرة تأتي عرضاً من غير أن يتوقعها القارئ أو يتهيّأ لها الكاتب[٣].

ومما يتصل من اعترافاته بالجانب السياسي، وهو جانب واضح من جوانب الشخصية في قضايا الأمة بعامة وسوريّا بخاصة؛ بعض ما يستحق الذكر. فقد عُرف عن الطنطاوي مشاركته في جهاد أمته ضد الاستعمار في فترة مبكرة جدّاً من شبابه. وأوكلت إليه (الكتلة الوطنية)[٤] لِمَا رأتْ من قدرته على الخطابة والارتجال وتحميس الجموع، واستمالة العواطف: قيادة اللجنة العليا لطلاب سوريّا خلال عامي ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م – ١٣٥٠هـ/١٩٣١م.

---

(١) ينظر: السابق: ٦/١٨١–١٨٢ و٨/٣٠٣ ومابعدها.

(٢) ينظر: السابق: ٢/٣٠–٣١.

(٣) ينظر: السابق: ٢/٣١.

(٤) الكتلة الوطنية: تجمع وطني شعبي سوري يمثله عدد من الزعماء الوطنيين رئيسهم الشيخ (هاشم الأتاسي) ومن أعضائها (فارس الخوري) و(شكري القوتلي) و(جميل مردم بك) و(زكي الخطيب) و(لطفي الحفار) و(فخري البارودي). وكانت بمنزلة الرأس المفكّر للنضال (الشعبي السوري) وكان لها جهازان تنفيذيَّان تدبر من خلالهما عمليات المقاومة ضد الاحتلال، وهما: اللجنة العليا لطلاب وشباب سوريّا، ورجال الأحياء. وكان يتزعم (اللجنة العليا لطلاب سوريا) الشيخ الطنطاوي، ويتولّى رئاسة الشباب من غير الطلاب (شفيق سليمان) و(محمود البيروتي)، ويتولى أمر (رجال الأحياء) كبار كل حيّ. ويظهر أن (الكتلة الوطنية) لم تكن تنظيماً حزبيًّا واضح المعالم، ولكن كان لها أثرها الواضح في استقلال سوريا. (ينظر: علي الطنطاوي: الذكريات: ٢/٥٩–٦٨).

ويعد هذا التكليف من الأعمال السياسية التي تسجل للكاتب في نضال بلده ضد الاستعمار، ودليلاً على ما يحتله في نفوس المواطنين من مكانة. ولكنه – تَقَيُّداً بالصدق، وكشفاً للحقيقة – يتخلى عن ذلك الذي يراه كثيرون مأثرةً يتمسكون بأهدابها، ويختلقون من الأسباب والعلل والبطولات والأعمال ما يدعم فكرة اتصالهم بها في ذهن القارئ؛ يتخلى عنها حين يُقرّ بأن (اللجنة العليا) التي ينسب إليها والتي انتخب رئيساً لها كانت «**من الباب الذي دعاه المنفلوطي (خداع العناوين) أقول هذا، لأن أيّام الدّعاية ولّت، وهذا يوم أكتب فيه للتاريخ**»[1]. ويُبَيِّن للقارئ لماذا كانت من (باب خداع العناوين) فيقول:

«**كنت أنا أخطب ولكن لا أصلح لما يسبق الخطبة من إعداد ومن مفاوضات ومحادثات، وكان لي رفيق هو أصلح الناس للمحادثات والمفاوضات، ولكن لا يصلح للخطابة – هو اجتماعي مئة على مئة – كما يقولون – وأنا رجل متوحد منفرد، لا أستطيع أن أوغل في مُخالطة الناس؛ فكمّل أحدنا نقص الآخر. فكنا نتلقى الأمر من الكتلة، ثم نقعد معاً في مكان، أو نتحدث في طريق فنرسم الخطة. ويقوم كل منا بحمل قسطه منها.. هذه هي (اللجنة العليا)**»[2].

ويواصل كشف حقيقتها ومن ينتمي إليها من أعضاء؛ فيقول:

«**وهؤلاء الذين ندعوهم إلى حضور جلساتها، ونسميهم أعضاء فيها، لا يملكون إلا أن يدعوا فيجيبوا، ويؤمروا فيطيعوا. وكذلك الحال في أكثر الجمعيات والهيئات والمنظمات. اسم كبير ودار أكبر، ولوحة على باب الدار بعرض الدّار، وماثمة إلا رجلان أو ثلاثة، أو من يختبئ وراءهم فيحركهم؛ يقيمهم ويقعدهم، ويوجههم ذات اليمين وذات الشمال، وهم يحركون سائر الأعضاء:**

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهرّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسد»[3]

---

(١) السابق: ٢/٦٣.

(٢) السابق: ٢/٦٨.

(٣) السابق: ٢/٧٩–٨٠.

ويعترف أيضاً بكتابة بعض مقالات (التَّأييد)، التي تدل على إعجابه (بالحزب الناصري) في بداية الأمر. ومنشأُ ذلك – كما يذكر – : التّسرّع أولاً، وثانياً: لأنه من عامّة الناس لا يصل إليه إلا ما يصل إليهم وقد تمنى ألاّ يكون كتبها. وحمد اللّه كثيراً على أن ألهمه إذ ذاك ألا يكتب عليها اسمه. ويعترف بهذه الزَّلّة الآن، لأن من حق القُرَّاء عليه أن يعرفوا ما كتب وما قال، لاسيما أن له في قصة الانفصال شأناً كبيراً[1].

وفي الإطار نفسه يصرح بأنه كاد يمالئ قليلاً حكومة (الشعباني) التي كانت تساير الفرنسيين وتعادي الوطنيين – على الرغم من تاريخه الوطني المشهور – إذ أوشك طموحه وأمله في مستقبل أفضل يعصف بوطنيته ونضاله، حين أراد أن يظفر بمنصب (رئيس تحرير) مجلة (الأهالي). وكانت لسان الحكومة التي نَصّبها الفرنسيون. ويصور الكاتب مقدار الصراع والتحدي الذي عاش فيه بين الرفض والقبول أو (حساب الأرباح والخسائر) وما انتهت إليه معركة المبادئ والقيم التي يعتنقها مع الحاجات والأحلام في نفسه[2]. وسوف اجتزئ بهذا المقطع الذي صور فيه الكاتب ما عاناه من صراع داخلي عميق بعد خروجه من قصر الحكومة ومقابلته للشعباني:

«استمهلت لأُفكر وخرجتُ إلى ساحة المرجة، ووقفت في زاويتها الغربية وأنا في عالم آخر. أرى الدّاخلين إلى سينما غازي، والمارين في المرجة أمامي كأني أرى شخوصاً تمرّ بي في المنام. هل أقبل أم أرفض؟ هل أبقى عمري كله معلمَ أولاد، أم أستغل هذه الفرصة التي جاءت هي إليّ، وهبطت علي. لقد كنتُ كالمغامر بماله كُلّه. إما أن يزيده ضعفين أو يخسره كله.

تارة أقول لنفسي: وهل الحياة إلا مغامرة؟! وهل يستكين ويرضى بالأقل إلا الخامل؟ وتارة أقول: أنا مكلف بإخوتي، ما لهم بعد اللّه غيري، فهل أدع الطريق المسلوك الآمن ولو كان طويلاً ضيقاً؟ وأسلك المفازة وأقتحم العقبة، رجاء أن أجد وراءها كنزاً، أو أن أصيب غنيمة؟

---

(١) ينظر: السابق: ٥/٢٨٣–٢٨٦.

(٢) ينظر: السابق: ٢/١٧٤–١٧٧.

ولست أدري كم وقفت أفكر، حتى إذا مرّ بي صديق... وكان من أقرب أصدقائي، فترددت هل أخبره أم أفارقه؟ ثم ذكرتُ أنّه عاقل، وأنّه كاتم للسرِّ، وأنّه محب لي، راغب في نُصحي. فلمّا سألني: ما لك؟ وما شأنك؟ خَبَّرتُه واستكتمه وسألته رأيه. ففكر وقال: إنك كمن يبيع غداءه ويشتري ورقة يانصيب، فإمّا أن يربح فيتغدى من ربحه السنة كلها غداءً أفضل من هذا الغداء، وإمّا أن يبقى جائعاً. ثم إني أعرف أنك لا تستطيع أن تسلك طريقاً لا يطمئن إليه قلبك، ولا يرتضيه ضميرك. فهل يريح قلبك أن تعمل مع مثل (الشعباني) ولطالما كتبتَ أنت بقلمك ترد عليه وعلى جريدته، إنك ستتركه بعد شهرين على أبعد تقدير، وتخرج بلا وظيفة ولاعمل، فدعها.

جزاه اللّه خيراً... لقد فعلت ما أشار عليّ به، ولم أعد إلى الأفندي... ولا إلى الوزير، بل تناسيت الأمر كله. وما مرّت مُدّة قصيرة حتى سقطت الوزارة التي فيها الشعباني، وتبدّل العهد كُله. وجاء الوطنيون الذين كنت أكتب عندهم وأعمل معهم، وأنا رئيس لجنة الطلبة معهم، وأراد اللّه لي الخير فاللهم لك الحمد»[1].

والطنطاوي يسجل هذا المشهد المؤثر من مشاهد الضعف بإزاء مشاهد الوطنية الصالحة والنضال المشرّف التي ساق لنا شخصيته من خلالها. وإذا كان الضعف في حدّ ذاته معبراً عن عجز الإنسان، وافتقاره الدائم إلى استمداد العون من البارئ المقدر، الذي بنعمته تتم الصالحات وسؤاله التوفيق والهداية إلى الحق، ومؤكداً حاجة الإنسان إلى الأخ والصديق المعين المناصح، ولو كان الإنسان من أهل العلم والخبرة والمعرفة، لأنه قد تستبهم عليه السبل وتختلط الأمور، ويتعذر عليه التقدير الصحيح لأي سبب من الأسباب، ولذلك قيل: (المرء كثير بإخوانه). أقول: إذا كان الاعتراف بالضعف السابق قد قررّ جميع تلك الأفكار وهي نبيلة وسامية فإنه قد ارتقى بمشهد الضعف إلى معنى أسمى مما هو عليه من خلال ما يثيره في الذهن من تداعيات لاحصر لها وما يقتدحه في القلب من العبرة الجميلة. وكان لشدة الصراع بين رغبات النفس و(أوهامها) وما تعتنقه من عقيدة وما تؤمن به من مبادئ أثرٌ في

---

(١) السابق: ٢/١٧٦-١٧٧.

تزويق الضعف والخروج به من دائرة الخيبة والانتكاسة والخذلان إلى دائرة الفن والتأثير والإمتاع.

ومن الاعترافات التي تتصل بجانب مختلف من حياته، وصفه لحالته النَّفْسية حين رزق مولودته الأولى (عنان) وكان ينتظر أن يكون بكره ذكراً:

«لقد كنت أتمنى أن يكون بكري ذكراً، وقد أعددت له أحلى الأسماء، ما خطر على بالي أن تكونَ أنثى!!

يقولون في أوروبّا: حك جلد الروسي يظهر لك من تحته التتري، ونحن مهما صنعنا فإن فينا بقية من جاهليتنا الأولى، أخفاها الإسلام، ولكن تظهر طرفاً منها مصائب الحياة. وكانوا في الجاهلية ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾وأنا لم أبلغ أن أدسَّ بنتي في التراب، ولكني أخفيتُ وجهي من الناس وكأنني أحدثتُ حدثاً أو اجترحت ذنباً وسميتها (عنان). واحتفل بها الأصدقاء والإخوان، ولمّا بلغ عمرها أربعين يوماً أقنعني صديقي وأستاذي القديم حسني كنعان بأن احتفل بها. وكان الموسيقيون جميعاً أصدقاءه وإخوانه، فاجتمع في دارنا الأصحاب والأقرباء، ورجال (التخت العربي) وعلى رأسهم علي الكري أبو عزّة، الذي كان يحفظ كل أغنية لقدماء المغنين في مصر وفي حلب، وكل موشحة عرفها الناس... وجاوزت سنه الثمانين وصوته عذب طري رحمه اللّه، وتوفيق الصباغ... الذي جاء بالبدعة التي لا نزال نسمعها من بعض الإذاعات العربية – وهي أداء نغمة الأَذان على القيثارة (الكمنجة). وموسيقي تركي عجوز اسمه (تحسين بك) ينفخ في الناي، يستمر الصوت خارجاً منها عشر دقائق، لا ينقطع ولا يتوقف، لأنّه يتنفس من غير أن يقطع نغمته، وهذه براعة لم أرها في غيره، وفؤاد محفوظ أستاذ العُود.

وأنا أرى الآن هذه الحفلة حماقة من حماقات الصبا، ندمتُ عليها ولا أنوي أن أعود يوماً إلى مثلها.

وولدتْ بعدها بسنتين بنان – اللهم ارحمها –... لم أتألم لأنها جاءت بنتاً كما تألمتُ للبنت الأولى، لأني رجعت إلى عقلي – وذكرتُ بشارة رسول اللّه ﷺ لمن ربى ثلاث بنات أو أخوات، أو بنتين أو أختين فأحسن تربيتهما، وأنا قد ربَّيت أختين

وخمس بنات، وأسأل اللّه بكرمه أن يكون لي نصيب من هذه البشارة. وصرت من بعد أتوقّع البنات لأني أيقنت أن اللّه جعلني من الصنف الأوّل. أتدرون ما الصنف الأول؟ إن للموظفين تصنيفاً، ومراتب ودرجات، فلا يملك موظف أن يعلو فوق درجته، أو أن يصعد درجة فوق درجته، وكذلك جعل اللّه الناس أصنافاً فالصنف الأوّل من رزق البنات، والثاني من رزق البنين، والثالث من رزق بنين وبنات، والرابع من كان عقيماً فليرض كُلٌّ بما قُسِمَ له، فاللّه إن أعطى غيرك في هذا الباب أكثر مما أعطاك، فإنّه يدَّخر لك العوض من باب آخر، ومن لم يجد العوض في الدنيا وجده في الآخرة، والآخرة هي الأبقى»[1].

والحقيقة أنه ليس غريباً أن يخطئ الإنسان، فالإنسان معرض للخطأ والغلط وخير من يخطئ الذي يبادر بالتوبة، لأن فيها عودة إلى الاعتدال والتوازن الذي هو جوهر الصواب. ولكنّه يعجب كيف يصدر مثل هذا الانحراف عن الجادّة، وهي هنا التسليم بالقضاء والقدر والرضا بما قسمه اللّه، من عالم وفقيه عارفٍ بالنصوص الشرعية مثل الشيخ علي الطنطاوي؟! ولكنه الضعف الإنساني الذي لا ينجو منه بشر، ولم يلبث الطنطاوي أن عاد إلى عقيدته وإيمانه فوزن به سلوكه ومشاعره، ورضي بما قسمه اللّه له بل رجا به كريم الثواب وجزيل الأجر لما ثبت من النصوص في فضل تربية (الأُنثى).

وقد جاء الاعتراف هنا – كما هو أغلب نصوص الاعترافات في الذكريات – عرضاً أي ليس مقصوداً لذاته، فقد جاء عند الحديث عن ابنته الشهيدة بنان، وهذا من شأنه أن يخفف على الكاتب من الإحساس بثقل الاعتراف وصعوبته، ولكنّه مع ذلك يظل بحاجة إلى شجاعة وتجرد. وكالعادة حاول أن يخرج به عن حدود العجز الفردي أو الهنة الشخصية إلى سياق اجتماعي وإنساني أرحب، فربط تصرفه الخاطئ بقاعدة أوسع من ذاته الخاصة، وهي الطبيعة العربية التي ينتمي إليها بحكم الوراثة، ثم أخذ في مناصحة القارئ ووعظه، وبيان صورة الحدث بياناً قريباً مألوفاً ومقبولاً. ولهذا يرى الباحث أن الصدق بعامة – والاعتراف إحدى الصور المؤكِّدة وجود الصدق – في الذكريات ذو طبيعة خاصة تهدف إلى المصلحة، وليس

---

(١) السابق: ١٢٧–١٢٩.

إلى تعرية الذّات دون قيمٍ أو دروسٍ مستفادة تسوّغ ذلك، هذا بالإضافة إلى أن (الاعتراف) مما يقوي شعور الإنسان بنفسه ويوقفه على خباياها وزواياها وهناتها فلا يطمئن إليها ولا يغتر بها، وإنما يسعى إلى تهذيبها والرقيّ بها وهو هدف من أهداف الكاتب.

وقضية أخرى، هي: تداخل نصوص الاعتراف في المعرض الواحد، فمثلاً يتضمن الاعتراف السابق اعترافاً عرضيًّا آخر داخل بنيته، وهي إقامته لاحتفال غنائي في منزله، ودعوته لعدد من الموسيقيين تعبيراً عن فرحه بطفلته وأسفه على ما بدر منه. وفي جانب الاستماع للمغنين والغناء تكثر النصوص التي يمكن أن أسميها: نصوصاً اعترافيّة، لأن الناس لم يعتادوا ممن يتصدر للفتيا، وينتمي إلى العلم الشرعي أن يجاهر بذلك فقد كان الطنطاوي يتحدث عنه بكل حريّة فيذكر سماعه للأغاني، وربّما أورد أسماءها أو مقاطع منها أحياناً. وقد وردت أسماء عدد من المغنين والمغنيات والملحنين والشعراء الغنائيين في أكثر من موضع من الذكريات. وتحدث عن مصادر الغناء العربي وأدواره والسلم الموسيقي، والعلاقة بين الموسيقى والوجدان، ويصف في حلقة كاملة مجلساً من مجالس لهوه وطربه في جرأة ووضوح دون تحرج أو خشية من الناس الذين يقرأون ما يكتب[1]. ويجب علينا ونحن نقرأ تلك النصوص ألا نغفل عن مسألة مهمّة هي أن للطنطاوي موقفاً فقهيًّا واضحاً من الغناء[2].

واعترف بأنه دخل إلى المسرح والسينما أكثر من مرّه وتابع عروضهما حين كان يكتب عنه (يوسف العيسى) في صحيفة (ألف باء) على الرغم من أنه يرى السينما «**كالسم المحلول في كأس الشراب اللذيذ، لا يكاد يذوقه حتى يسيغه، ثم**

---

(١) ينظر كل ماتقدم: الذكريات: ١٣٥/١، ١٤١ و٢٢٢/٢ و١٥/٣، ٣٠، ٢٦٩–٢٧٦ و٤٧/٤، ٨٧ و٢٢٣/٥.

(٢) يذهب الطنطاوي إلى إباحة الغناء وجواز سماعه، وقد أفصح عن هذا الموقف في فتوى شرعية له بهذا الصدد (ينظر: فتاوى علي الطنطاوي: ١٠٦–١١١) ولكنه في إحدى حوارات الباحث معه أشهده على أنه قد توقف عن العمل بفتواه. (مقابلة معه: ليلة الثلاثاء / الأربعاء ١٤١٨/١١/١٢هـ وقد أشهد معي على ذلك الأخ أحمد المسعودي وأبا زياد الحاج، وكان ذلك في منزله بجدّة).

يألفه فيعتاده، فيقضي عليه»[١]. ويوضح خلال ما يسوقه من الاعتراف أنه لم يكن ناقداً فنيًّا محترفاً، ولا خالط أهل الفن ولاعاشرهم، وإنما تزود بأسس التمثيل والنقد الفني مما يشاهده من مسرحيات وعروض سينمائية. وقد بلغ من إعجابه بمسرحية يوسف وهبي أن قام بعد إرخاء الستار ليلقي خطبة على الناس في الإشادة بها ووصف قوتها، ولما فرغ من تعليقه انحنى له الممثلون شاكرين، وضجت الدار بالتصفيق[٢].

ونقف على نص اعترافي جميل بهذا الصدد اندفع الكاتب في تسجيله حمداً للّه وشكراً على أن هداه إلى الأمثل والأصلح، فاختار له من الخير والتوفيق خيراً مما اختاره هو لنفسه. وما تشاؤون إلا أن يشاء اللّه، هو أهل التقوى وأهل المغفرة.

يقول الطنطاوي:

«... أرادوا أن يؤلفوا فرقة للتمثيل، فجاؤونا بشاب له اسم غريب لا أزال أحفظه هو (فتوح نشاطي) أعدّ اختبارات جعل يختبر بها الطلاب، ليرى من يحسن منهم الإلقاء، ومن يصلح منهم للتمثيل، فلمّا وصل الدور إليّ، دُهشَ ودُهشَ الطلاب جميعاً، والتفتوا إلي بعد أن كانوا لا يحسون بوجودي، وصرت المقدم عنده وعندهم، وصار هذا (الجدع الشامي) مضرب المثل في إجادة الإلقاء، والمقدرة على التمثيل، ولم يعلموا أني كنتُ (أستاذاً) في دمشق لهذا الفن، قبل أن أكون (طالباً) مبتدئاً فيه في مصر.

ما أعجب الإنسان!

ما أعجب حياة الإنسان!

---

(١) ينظر: الذكريات: ٢/ ٣٠-٣١.

(٢) كانت تلك -كما يقول- حماقة ونزوة شباب يخجل من ذكرها وإن ذكرها، ينظر: السابق: ٢/ ٣١-٣٣. وسيأتي الاستشهاد بهذا النص عند الحديث على ظاهرة الاستطراد في الذكريات، حيث أشارت الدراسة إلى أن الاستطراد قد أعان على المضي في بوحه ليعترف بحقائق مهمّة يصعب على مَنْ مثله ومَنْ في مكانته أن يبوح بها، لولا أنه قد وعد بأن يقول الحق ما استطاع، واحتاط لنفسه ببيان موقفه الأخير منها وأنها كانت حماقة منه، ونزوة شباب يخجل من ذكرها وإنْ ذكرها.

لقد سألوني عشرين مرّة في درس الإنشاء: ماذا تريد أن تكون في المستقبل؟ فكتبت: أريد أن أكون طبيباً، وأن أكون محامياً، وأن أكون... وأن أكون، فما كان شيء مما أردت أن أكونه، ولكن كان ما أراد اللّه أن أكون...

الإنسان مثل الزورق في البحر، يسيِّره راكبه ويحدد وجهته، ويُعيِّن غايته، ولكن قد تأتي موجة عالية، أو ريح عاتية، فتوجهه وجهة لا يريدها، إلى غاية لا يقصدها!! في يدي الآن، ورقة مصفرّة من القدم مكتوب فيها:

المملكة المصرية، دار العلوم العليا، نادي التمثيل والموسيقى، نمرة مسلسل (٧٠). وصل من حضرة العضو محمد علي الطنطاوي مبلغ ١٠ فقط قروش صاغ قيمة اشتراكه عن شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩م تحريراً في ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٩م. الخاتم الرسمي، أمين الصندوق: محمد علي الضبع.

علي الطنطاوي ممثل أو موسيقي!! وتصورت ماذا تكون خاتمة القصة التي بدأت بهذا (الفصل) لو هي اكتملت فصولاً. إلى أين كان يصل بي هذا الطريق الذي وضعتُ رجلي فيه أوله يوم صرت عضواً في نادي التمثيل والموسيقى لو أني تابعت السير فيه؟ كنتُ أبدأ فأمثل في المدرسة، ثم أشارك في رواية على المسرح، ثم أدخل فرقة من الفرق، ثم يسجل اسمي في القائمة التي تبدأ بجورج أبيض لتنتهي بإسماعيل ياسين، فيكون علي الطنطاوي اليوم ممثلاً عجوزاً متقاعداً، يعاشر النساء، ويشهد الرّقص، ويسهر الليل وينام النهار، ويعود بلا صحة ولامال ولادنيا ولا آخرة. ولم يكن يحول بيني وبين هذه النهاية شيء، فالاستعداد له في نفسي كبير، والرغبة فيه قويّة، ولكن اللّه صرفني عنه. أصبحتُ يوماً فإذا خاطر قوي لم أملك له دفعاً يدفعني إلى ترك دار العلوم، ونادي التمثيل فيها، والعودة إلى دمشق، وكان هذا الخاطر هو الموجة التي حوّلت زورقي، إلى ما هو خير لي، فاللهم لك الحمد»[1].

أية عاطفة يثيرها هذا النص الاعترافي السابق لديك؟!! هل يثير فينا عواطف دونية كما تثيره بعض نصوص الاعترافات الماجنة؟! هل يعطينا صورة مشوّهة عن الإنسان في مباذله ونزواته؟! أم أنه يأخذ بأيدينا إلى مدارج الارتقاء بما يبعثه في النفوس من العواطف الخيّرة والإرادة البانية؟

---

(١) السابق: ٢/٢٧٦-٢٧٨.

إنه ليغيب عنا ونحن نقرأ ذلك النص الاعترافي الإحساس بأن الكاتب يُجرِّد ذاته فيكشف لنا شيئاً من تقلبات الطريق وتعرجاته، التي كادت تخطفه من طريق الكلمة الطيبة والدعوة إلى اللّه إلى ما هو أدنى وأوهى، لأن الكاتب قد ألبسه ثوب الحَمْد للّه والتحدث بنعمة التوفيق والهداية. إن الاعتراف هنا كما هو في غيره من نصوص الذكريات ليس للضعف ولا للتمدح بالخطيئة، ولا لعرض الذّات عارية من لباس التجمل والتستر، ولكنه استثمار للنقص في التقويم والتصحيح.

وقد يصل الاعتراف إلى جوانب خفيّة جدّاً من الشخصية ومحرجة لها، لأنها تمس سلوكيات ومشاعر في فترة بائدة من حياة الإنسان لها خصائصها وتكوينها الجسدي والنفسي. وأعني به الجانب العاطفي والوجداني والجنسي أيضاً. وهذا الجانب لاسيما الأخير منه غريزة إنسانية اعترف بها الإسلام وسعى إلى تهذيبها والرقي بها. فكيف عرض لنا الطنطاوي مثل هذا الجانب الحساس جدّاً من اعترافاته؟!

لقد جاءت اعترافاته في هذا الصدد على درجة كبيرة من الجرأة التي لا يخالطها جلافة ووقاحة أو تمجيد للذات في ضعفها، أو مبالغة في إثارة القارئ بما يحشده من صور تستثير الغرائز، وتُغَيِّبُ الإحساس بالخطيئة، مع الالتزام بالصدق والواقعية. ولاشك أن المواءمة بين الجانبين مهمة صعبة لا يجيدها إلا الكاتب المسلم لأن نفسه قد أخلصت نيتها للّه وحده وبرئت وجهتها من كل هوى وغرض فلا تحس إلا الإحساس النبيل الفاضل، ولذلك يجيء تعبيرها عن هذا الإحساس بريئاً من مثالب الانحدار. وسوف أعرض نماذج ثلاثة في هذا الجانب مستشهداً بما كتبه الطنطاوي حتى يكون ذلك أبلغ في الدلالة والوضوح.

١. النموذج الأوّل:

«أُقرُّ أن سفري إلى مصر[1] على رغم أنها بلد الأزهر، ومثابة العلماء، وأن إقامتي فيها كانت قصيرة، وكانت في وسط إسلامي، أنها على هذا كله كادت تفتنني وتبدّل سلوكي؛ فليتق اللّه الذين يبعثون بأولادهم إلى بلاد لا يسمع فيها أذان، ولا يتلى قرآن، وفي نفوسهم ظمأ قاتل، وحولهم أنواع البارد (المسموم) من حلو

(١) كانت هذه السفرة في سنة ١٣٤٧هـ-١٩٢٨م.

الشراب. وإذا كنتُ أنا الناشئ في بيت العلم والدين كدتُ أفسد في مصر وأنا ابن عشرين، فماذا تكون حال من يذهب في مثل تلك السن إلى أوروبا أو أميركا أو روسيا؟!»[١].

والإقرار هنا يتجه إلى المُنَاصَحة ويتخذ من التجربة الشخصية وسيلة لحفز القرّاء وحملهم على الحذر من الإقدام على بعث أولادهم إلى بلاد تنتشر فيها الإباحية من غير رقيب أو موجِّه؛ لذلك لا يهتم بالاعتراف كثيراً من حيث هو (كشف) للموقف و(إفضاء) بخباياه، ولامن حيث هو (صراع) بين رغبتين دنيا وعليا كل واحدة منهما تجرّه إليها.

وللسبب نفسه جاء إقراراً مبهماً وإن اتضح المراد منه بعامة من صيغ الكلام وكناياته. ويأتي الموقف نفسه بارزاً في بعض نتاجه الأدبي (الواقعي)[٢] شكراً للّه وتلذذاً بالانتصار على هوى النفس، وتحذيراً للقرّاء من الانخداع لتزيين النفس والاستجابة لشهواتها، ولكنه يقدمه هناك على نحو أقوى وأوضح وأشدّ تأزمًّا لأنه يبرز معاناته تلك بشيء من الحريّة متكئاً على عنصر فني مؤثر وهو الصراع بين ما ينبغي وما لا ينبغي وما يحف الأول من مثل وقيم وأمر ونهي والثاني من رغبة وشهوة وهوى[٣].

٢. النموذج الثاني:

جاء على شيء من التفصيل، فذكرت فيه الحادثة والأسماء وتحدد فيه المكان، ولكن غابت فيه القدرة على رسم الصراع. والنص الذي أختاره هنا يصف موقفاً للطنطاوي مع ممرضة جميلة كانت تباشر العناية به، وهو طريح في (المستشفى الفرنسي) بدمشق، وأترك للكاتب وصف الموقف بنفسه:

---

(١) الذكريات: ١/٢٦٤.

(٢) لا أقصد بطبيعة الحال إبداعه الخيالي مثل (قصص من الحياة) وغيرها لأنه حتماً سوف يعول على كثير من تجاربه وخبراته في رسم المواقف واستبطان الشخصيات، وهذا يمد الأدب الخيالي بشيء غير يسير من الحرارة الوجدانية والصدق الفني. وهو شيء يصعب فصله تماماً عن الدخول إلى نسيج العمل الإبداعي مهما بالغنا بالاحتياط، ولكني قصدت الجانب الأدبي الواقعي من كتاباته.

(٣) ينظر: علي الطنطاوي: فصول إسلامية: مقالة: ليلة القدر ص١٥٣.

«أخذتُ أوسع غرفة مشرقة، واشترطت عليهم أن يزورني من يشاء متى شاء. وكان في هذه الغرفة مدخل شبه خاص يفضي إلى الشارع. وكانت الممرضة بنتاً لطيفة حلوة، ما كان لي من حلاوتها وجمالها إلا ما كان يغني به محمد بن عبدالوهاب عن القمر قديماً:

حظنـــا منـــه النظـــر والنَّظـــر راح يرضـــي مـــين

أرضاني أنا، لا لأن نفسي تقنع به، بل لأنها لا تستطيع الوصول إلى أكثر منه. ولولا نشأتي الإسلامية القويّة، ولولا حفظ اللّه لي – وله الحمد عليه – لكان لي معها أكثر من النظر والحديث. فقد كانت جميلة لطيفة وكنت شابًّا قويًّا، وإن لم أكن جميلاً فلستُ قبيحاً. وأحسب لو أنني فتحتُ لها الطريق لالتقينا على ما لا يرضي اللّه. فيا ليت القائمين على المستشفيات يضعون في أقسام الرجال ممرضين بدلاً من الممرضات»[١].

وهو إذا كان قد تَحفَّظ على اسم الممرضة، فإنه لم يلبث أن قذف به إلى وعي اللغة المكتوبة، ودائرة المفصح عنه في النص، وذلك بطريقة غير مباشرة يلمحها القارئ المدقق، قال:

«وكان يدير المستشفى راهباتٌ. رئيسةُ القسم الذي كنت فيه راهبة اسمها (سوماري) أي الأُخت مريم، وكانت شديدة عنيفة، ولاسيما على الممرضة التي اسمها (تيريز) ولعلها في أعماقها تثأر لقبحها من جمال هذه الممرضة، ولغلظتها من لطفها»[٢].

مما يحمل على الاعتقاد بأن اسم الممرضة التي عناها الكاتب في اعترافه هو (تيريز) اتصال الكلام عن الراهبة (سوماري) والممرضة (تيريز) بالاعتراف، فقد ذكرهما بعد ثلاثة أسطر من تسجيله لاعترافه المستشهد به سابقاً. ولكون الممرضة والراهبة يعملان بالقسم نفسه الذي يرقد فيه الطنطاوي، ولأنه وصف (تيريز) بأوصاف مشابهة لما وصف به الممرضة المذكورة في اعترافه.

---

(١) الذكريات: ٦٨/٤-٦٩.

(٢) السابق: ٦٩/٤.

والصراعُ – على الرغم من الجرأة والصراحة – مفقود تماماً، وهو عنصر مهم جدّاً لأنه – إن وُجد – يرشدنا أكثر إلى طبيعة الموقف ويلفتنا إلى مواطن التحدي، ويشعرنا بصعوبة المقاومة والتمنّع، وما بذله الكاتب في سبيل ذلك من جهد وعناء، ويجعل منا – دون شعور – شركاء الكاتب نعيش موقفه، ونحس بإحساسه، وندنو بدنوّه من الخطر، وننجو منه كما نجا. وفي عمق الصراع تظهر إنسانية الكاتب وما يعتمل في داخله من مشاعر وأحاسيس فتزداد رغبتنا في القراءة والاطلاع ونزداد أيضاً شوقاً كلما أوغلنا بأحاسيسنا وراء تجربته الإنسانية.

والكاتب – فيما يبدو – قد شعر بضعف عنصر الصراع في النص، مما جعله يستعيض عنه بإبراز دواعي الركون إلى هوى النفس والاستجابة لشهواتها، وتتمثل في غياب الموانع، وتوافر الدّوافع؛ فتوقد الشباب، وجموح الشهوة، ونضارة الخِلْقة، وقابلية المكان (الغرفة المنعزلة – المخرج المنعزل المؤدي إلى الشارع غير المدخل الرئيسي الذي يصلها بسائر المستشفى) وجمال الممرضة ولطافتها وميلها إلى الكاتب، كل ذلك مما يحرض على مسايرة الرغبة التي تنطوي عليها النفس وتؤججها كلما خمد أوارها. وكأنما يريد بذلك أن يترك الصراع يعتمل خارج حدود النص، وبعيداً عن أدواته اللغوية، أعني: في نفس القارئ الذي لا تخونه الفطنة في تفهم الموقف والتقاط هذه الدقائق المنثورة عن تعمّد ووعي.

ويظهر أن ضعف الصراع في الاعترافات المتصلة بالجانب الوجداني والعاطفة ملمح عام في جميع الاعترافات التي تندرج ضمن هذا الاتجاه، وإن تفاوتت من حيث وجوده أو عدمه. ولا يكاد يخرج عن ذلك إلا نماذج بسيطة جدّاً لا تخرق القاعدة، حرصت على أن أعرض نموذجاً لها بعد قليل، وبرغم ذلك فهو صراع أقل مما يستحقه الموقف ويتطلبه. ولعل السبب في ذلك يعود إلى تحرج الكاتب من الاغراق في عرض حالته الوجدانية أو النفسية، وخشيته أن يفهم منه ذلك خطأ، لاسيما أنه لا يكتب (لكتاب) لا يقرأه إلا الخاصة، ولكنّه يكتب (لصحيفة) سيارة تدخل كل بيت ويقرأها العامي والخاصي والعالم والجاهل، والرجل والمرأة والشاب والمراهق والشيخ الكبير، أو لأنّه بات (يستهجن) الحديث في مثل هذا الموضوع بعد أن بلغ هذه السن المتقدمّة. وهو ما حاول أن يفصح عنه في النموذج التالي:

٣. النموذج الثالث:

«من أصعب ما مرّ بي من تجارب في مجال الدروس الخصوصية، هي: أنه كان في بوّابة الصالحية، مؤسسة أهلية لأستاذ لبناني اسمه (كما أذكر) سليمان سعد، تدعى (كما أظن) الجامعة العربية، سمع بأني أحسن العربية، وأحتاج إلى المال، فعرض عليّ أن ألقي عنده درساً خاصًّا لطالب واحد، بأجر كان يعتبر كبيراً جدّاً فقبلت.

وكانت المفاجأة الكبيرة يوم الدرس أن هذا الطالب جاء يحمل معه تاء التأنيث، لم يكن طالباً، ولكن طالبة شابَّةً تتفجّر شباباً، وتفيض حُسناً، تنشر حولها ساحة من الفتنة مثل الساحة المغنطسيّة. لم أقدر أن أمكن نظري منها، لأصف وجهها وعينيها، ولكن اللحظة التي لقيت عيناي فيها عينيها كفت لتقول لي وأقول لها. ولعلي بالغت في تصوري، فلعل شبابي وكوني لم أجتمع قبلها بفتاة من غير أهلي، وأن في نفسي من العواطف والرغبات ما يكون في نفوس أمثالي من الشباب، لعل هذا هو الذي خيل إليّ أني أرى فيها ما رأيت. والخلاصة: أني أصبت منها بمثل ما يصيب من يمسه السلك مشحوناً بتيار الكهرباء. ووقفتُ ألتقط أنفاسي، وأراقب أن أفيق من دهشتي، يتقاذفني ميل نفسي إلى تدريس هذه الفتاة مع حاجتي إلى الأجر الكبير الذي عرض عليّ، وخوفٍ من اللّه الذي أسأله أن يبعدني عن طريق الحرام، ومزلات الأقدام.

وترددت! هل أقول: لا، فأحرم نفسي متعة الجمال والمال. أم أقول: نعم، فأسلك سبيل الضلال؟ وتمنيت أن أقوى على الرفض فلم أستطعه، ومنعني ديني أن أعلن القبول. وكانت هذه الخواطر تمرّ في نفسي مرّ (الفلم) الذي يكرّ مسرعاً، وهما يرقبان الجواب، وهو يستحثني عليه، يشجعني على القبول، فقلت: ولكني لا أستطيع أن أدرس الآنسة وحدها. وقد نسيت أن أقول لكم إنها كانت سافرةً، يتهدّل شعرها على كتفيها، وتبدو ذراعاها، قالا: ولِمَهْ؟! قلت: لأن ديني يحرم هذا عليّ. فقالت: آتي بأخي معي يحضر الدرس. وليتها ما نطقت، فقد كان صوتها فتنة أخرى كامنة فيها، ومن الأصوات ما يفتن ولو نطقت صاحبته بالموعظة والتذكير. وحضر أخوها، ودرستها، والدرس (تصوروا) موضوعه منهاج تاريخ الأدب في البكالوريا، الذي يجيء في أوله شعر بشار وأبي نواس، ولو درَّس الشاب مثل هذه الفتاة أحاديث البخاري لوجد الشيطان مدخلاً إلى مجلسهما، فكيف والدرس في غزل بشار المكشوف المفضوح، وشعر أبي نواس؟!

درستها أربع حصص أو خمساً، اللّه أعلم كيف كنت فيها، وإن لم أدر (صدقوني) ما لون عينيها، فأنا كنت الخجلان لا هي، فكنتُ أتحاشى النظر إليها، على رغبة نفسي فيما أتحاشاه. ثم رأيتُ أن استمرار الدرس مع غض البصر، ولزوم الاحتشام، ومع ما في النفس من الرغبة الطاغية، نوع من عذاب الدنيا. ونظري إليها ورفع الكلفة معها، وتوثيق الصلة بها، تعريض نفسي لما هو أشد منه من عذاب الآخرة. فتركت لها ما بقي لي من (الأجرة) معها، وهربت منها، وقلبي عندها. ولو وضعت في هذه الحالة قصة لكانت من أروع القصص، وأنا قادر على كتابتها، ولكني أكرم شيبتي أن أعود الآن إلى هذا الهراء، وأرحم الشباب من القرّاء»[1].

وعلى كل حال فإن هذه المشاهد بعامة من مشاهد الاعتراف تذكرني بصورة من صور الاعتراف الجريء عند الإمام الفقيه ابن حزم الظاهري —رحمه اللّه— في كتابه الشائق (طوق الحمامة في الإلفة والألّاف) إذ جميع ما ساقه الشيخان (ابن حزم / الطنطاوي) من صور للاعتراف يحكي فترة ماضية من فترات حياتهما هي صدر الشباب، وبرغم أن هذه المرحلة مظنة النزق والطيش نراهما بفضل تمسكهما بأهداب الورع والتقى ينتصران على بوادر الضعف والنقص، ويُعْليان من شأن الفضيلة والعفاف، ويبرزان المعصية والخطيئة في صورة كالحة مقيتة، وحتى حين يقارفان شيئاً من (اللمم)[2] — وهو ما لا يسلم منه إنسان — فإنهما يرسمان قدوة صالحة وهي تجتاز الظلمة إلى النور وليس العكس، فتصحح ما بدر

---

(١) السابق: ٢/١٧٥—١٧٧.

(٢) اختلف في معنى (اللمم) المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. فقال نفطويه: اللمم هو أن يأتي بذنب لم يكن له بعادة. وقال عطاء بن أبي رباح: اللمم عادة النفس الحين بعد الحين. وقال سعيد بن المسيب: هو ما ألمّ على القلب أي: خطر. وقيل: صغار الذنوب مثل الهم وحديث النفس ومالا حدّ فيه كالنظرة والقبلة ونحوهما. وقال عبداللّه بن عباس: اللمم الرجل يلم بالذنب ثم يتوب... ألم تسمع النبي ... كان يقول:

إن يْغفِر اللّه يغفر جَمّا ... وأيُّ عبدٍ لك لا ألَمّا

ينظر الإمام القرطبي: الجامع لأحكام القرآن جـ٩/٧٠—٧١، والإمام البلنسي: تفسير مبهمات القرآن ٢/٥٥٩.

obeikandi.com

بالتوبَة وتعلن الفرحة بالعودة إلى الطريق الصحيح. وهما لا يخاطبان فيما يبوحان به غريزة الإنسان – وإن وصفا شيئاً مما نالهما بسببها – ولكنهما يخاطبان عاطفة الإيمان بداخله فيوصدان سبيل الشرّ في وجه النفس الأمّارة بالسوء، ويوقظان في النفوس روح المحاسبة النبيلة، ويبتعثان فيها راحة غريبة ولذّةً ورضا لا تعرفها إلا النفوس المطمئنة إلى عقيدتها.

لقد استطاع الطنطاوي بصدقه في اعترافه أن يقدم لنا في ذكرياته بشراً مثلنا يصيب ويخطئ. وليس الخطأ عنده نهاية المطاف، ولكنه بداية لتحديد وجهة المسيرة التي اختار أن تكون ارتحالاً إلى مرضاة اللّه وعملاً في طاعته، وصبراً على أوامره، وحبساً للنفس عن نواهيه، وتحقيقاً كاملاً لمعنى العبودية على ما يعتورها من عجز وقصور[١].

– الاعتراف أو المكاشفة، ولماذا؟

قبل الانتقال إلى صورة أخرى من صور الصدق في (الذكريات) أودّ أن أبيّن للقارئ الكريم عدم ارتياحي لاستعمال مصطلح (اعتراف / اعترافات – *CONFESSION / CONFESSIONS*) هنا على أقل تقدير، أو مع أدب الطنطاوي تحديداً؛ لأنه وإن كان مشتقاً من مادّة عربية فصيحة صحيحة، قد اكتسب باستعماله مقابلاً لـ (*CONFESSION*) بُعداً (فضائحيًّا)[٢] وارتبط استخدامه بالعلاقات الجنسية غير المشروعة، أو المغامرات العاطفية في أحط صورها. وهو بهذا المفهوم: مصطلح صيغ تحت وطأة المعتقد النصراني، وتربى تصوره الذهني والفلسفي والأدبي على يدي نموذج غربي وافد من خارج أحضان المجتمع المسلم، والذائقه العربية الخالصة[٣].

---

(١) للوقوف على نماذج أخرى من الاعتراف ينظر: الذكريات: ١/١٥٦، ٢/٣٧، ٤٥، ٢/١٠٣ و٤/٧٩–٨٢ و٦/٢٣٦–٢٣٧ و٧/٣٢٥ و٨/٢٧١–٢٧٢.

(٢) القياس أن تكون النسبة إلى المفرد، ولكن قصد الجمع هنا وأجري مجرى العلم.

(٣) لا يقصد الباحث بذلك إلغاء مصطلح الاعتراف / الاعترافات ولا مصادرته من حقل الدراسات السيريّة، بل على العكس يقرّه ويعترف به، ولكنّه يجعله ألصق بالنموذج الغربي المتحرر من سُلطة الدين والأخلاق. وفي الجانب الآخر يضع ويرجح مصطلح (مكاشفة / مكاشفات) لذلك النموذج المغاير، =

واعتقد أن البديل الأمثل الذي ترشحه الدراسة هو لفظة (مكاشفة) لخمسة أسباب، هي:

١. عربيّة الكلمة وفصاحتها، فهي مصدر من الفعل (كَاشَفَ) بمعنى: أفضى بالشيء، وجاهر به، وأزال عنه ما يستره. وفي الأَثر: «لو تكاشفتم ما تدافنتم» أي: لو انكشف عيب بعضكم لبعض. قال ابن الأثير: «أي لو علم بعضكم سريرة بعض لاستثقل تشييع جنازته ودفنه»[١].

٢. قرب المعنى اللغوي من المعنى الاصطلاحي.

٣. المصطلح بكر – على الأقل في حقل الدّراسات النقدية – يسهل تبني إطاره الفلسفي بما يتفق وخصوصية الإبداع العربي. ويكون استعماله بدون هالات مشوَّهة أو اضطراب يفضي إلى الخطأ أو الخلط[٢].

٤. ليس في المصطلح أثر من آثار النموذج الغربي للاعترافات، خلاف مصطلح (الاعتراف).

٥. توافق طيب ومعبر بين صيغة المصطلح (مكاشفة) وبين صعوبة عملية الكشف عن الذّات. فهي ليست عملية ميسورة ومتاحة لكل أحد، بل فيها محاورة ومدافعة وكرّ وفَرّ بين الرغبة في الصدق، وتحفّظ الإنسان على أسراره الشخصية وكتمانه لعيوبه. وهذا التوافق ظاهر في صيغة الفعل والمصدر: (كاشف – مكاشفة).

=

الذي ينطوي على تميّز حقيقي في طبيعة الإفضاء / البوح، ويظهر عليه مسحة من الالتزام الواعي خلقاً ودِيناً؛ كما نجد عند ابن حزم، وابن الجوزي، والطنطاوي.

(١) ينظر ماتقدم: الفيروز آبادي: القاموس المحيط: ٤/٥٥–٥٦ (بترتيب الزواوي)، وابن منظور: لسان العرب: ٩/٣٠٠، جبران مسعود: الرائد: ٢/١٢١٨، ١٢٤٢ و: المعجم الوجيز: ٥٣٥.

(٢) المصطلح موجود ومستعمل لدى الصوفية بكثرة، ويقصد به: (الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً) أو هي: (انكشاف الحقائق الإلهية للصوفي بنور يقذفه اللّه في صدره، بعد رياضات روحيّة كثيرة، وبعد قهر الجسد بطرق شتى) أو هي (حضور لا ينعت بالبيان) ينظر: الجرجاني: التعريفات: ١٨٤ و٢٢٧ وجبران مسعود: الرائد: ٢/١٢٤٢.

٢. محاسبة النفس وعتابها:

ذكر ابن حجة الحموي (عتاب النفس) كغيره من البلاغيين غلطاً ووهماً منه ضمن (البديع)، وقد وصفه فقال: «إنه صفة لحال واقعة ليس تحتها كبير أمر»[١]. ولعلَّ هذا صحيح بالنسبة لقيمة عتاب النفس في علم البديع، ولكن بعيداً عن وهم البديعيين وتقديرهم، يعتقد الباحث أن عتاب النفس ومحاسبتها على جانب كبير من الأهمية، وهو ثمرة المكاشفة / الاعتراف لاسيما عند الأديب المسلم الذي له تصوره الخاص عن الحياة والكون.

ولاريب في أن محاسبة النفس وعتابها يمكن أن تَدْخُل ضمن المكاشفة / الاعتراف ولكنني رأيت إفرادها:

– لأنها أبلغ وأكمل وأكثر صدقاً وحرارة من نصوص المكاشفات.

– ولغزارة نصوصها في الذكريات.

– ولأنها مظهر مميز من مظاهر الصدق وصوره في السيرة الذاتية عند الأديب المسلم.

ويكون الكاتب خلال محاسبته لنفسه أو معاتبتها أقرب ما يكون إلى القارئ؛ لأن الذّات فيها تتجرد تماماً وتتلاشى الرغبة في الكتمان، وتبقى حاجة واحدة تحرك الكاتب وتدفعه وتلح عليه، وهي نقد الذّات وتفحص عيوبها وتصفية حساباتها، فيطرح من رصيده ما ليس له، ويؤدى ما كان عليه، ويتحقق مما هو له تحسباً للرحيل، وتمحيصاً للنفس.

ومحاسبة النفس ومعاتبتها مبدأ إسلامي. وقد جاء به الأمر في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ ﴾[٢] فأمر الله العبد أن ينظر ما

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب: ١٤٤.

(٢) سورة الحشر: ١٨.

قدم لغد، وهو أمر يتضمن المحاسبة والنظر: هل يصلح ما قدّمه ليلقى به اللّه أو لا يصلح؟!

قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على من لا تخفى عليه أعمالكم»[1]. ولذلك تتسلل نصوص المحاسبة عند الطنطاوي إلى أخفى المواطن والبواطن التي لا يدرك حقيقتها إلا اللّه.

ولا تكون محاسبة ولامعاتبة إلا مع الضمير الحي، واليقين الراسخ بأن الحق أحق أن يقال، وأحق أن يصدع به. وأحرى بالنفس أن يساء بها الظن لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش ويُلَبِّسُ عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالاً، فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك.

فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السُّخط تبدي المساويا

«ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنّه بنفسه فهو أجهل الناس بنفسه»[2] وسوء الظن لا يعني ظلم النفس وإهانتها وتزوير المثالب والمعايب عليها لأنه مينٌ وظلم، ولكنه يعني التَّثبت والتَّروي في وزن ما يصدر منها من أفعال أو أقوال أو هواجس، لأن الإنسان يجامل نفسه وقد يمالئها. وهذا ما يُصلح النفس ويقومها، خلاف النظرة إلى الناس والتعامل معهم، فإن معنى الخلافة في الأرض إنما يتحقق بإحسان الظنّ بهم والإحسان إليهم.

وكما تتعدد موضوعات نصوص المكاشفة في الذكريات تتعدد موضوعات نصوص المحاسبة فيها إلا أن المحاسبة ألصق بالإنسان وأكثر تَعمقاً لذاته، وأبعد تأثيراً في القارئ؛ لأنها توقفه على صورتين مختلفتين لشخصية واحدة في أقصى درجتي تناقضهما أحياناً، وتقدم له ذاتاً متطلعة إلى الكمال البشري الممكن وهي تكتوي بلظى الحزن والندم، وتتوجه إلى البارئ بإقرارها بالتقصير ليمنحها دفء

---

(١) نقلاً عن ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين: ١١٥ (تهذيب عبدالمنعم العربي).

(٢) السابق: ١١٦.

الإيمان ويمنَّ عليها بالهداية والاستقامة، ويغسل حوبتها ويستر عيبتها، وبها تشعر النفس بما يشبه التطهر الفعلي:

«واللّه، ما أقول هذا الكلامَ أديباً يتخيل، ولكن، وأحلف لكم لتصدقوا: ما أقول إلا الحقيقة التي أشعر بها: أنا من خمسين سنة أعلو هذه المنابر، وأحتل صدور المجلات والصحف، وأنا أكلم الناس في الإذاعة من يوم أنشئت الإذاعة. ويسمعونني ويرونني في الرائي من يوم جاءنا الرائي، ولطالما خطبت في الشام ومصر والعراق والحجاز والهند وأندونيسيا وكثير من بلاد أوروبا خطباً زلزلت القلوب، ومحاضرات شغلت الناس، وكتبت مقالاتٍ كانت أحاديث مجالسهم. ولطالما مرّت أيام كان اسمي فيها على كل لسان في بلدي، وفي كل بلد عشت فيه. أو وصلتْ إليه مقالاتي. وسمعت تصفيق الإعجاب، وتلقيت خطب الثناء في حفلات التكريم. وقرأت في الكلام عني، ولي وعليّ: مقالات ورسائل، ودرس أدبي ناقدون كبار، ودُرّس ما كتبت وما قالوا عني في المدارس، وترجم كثير منه إلى أوسع لغتين انتشاراً في الدنيا: الانكليزيّة والأورديّة، وإلى الفارسيّة والفرنسية، إي واللّه، فما الذي بقي في يدي من ذلك كله؟ لاشيء. صدقوني إن قلت لكم: لاشيء، وإني إن لم يكتب لي بعض الثواب من اللّه على بعض هذا أخرج صفر اليدين.

إنني أقف مطلع العام لأحاسب الحياة على ما أعطتني، وعلى ما أخذتْ مِني، فأجد أنها أخذت مني عمري الذي هو رأس مالي، فإن لم أخرج من هذا العمر بعمل صالح ومغفرة من اللّه، أكن قد خسرتُ كل شيء.

إن كل ما في الدنيا يذهب إن ذَهبتُ، لا يبقى لي إلاّ ما قدمتُ لآخرتي بسم اللّه الرحمن الرحيم: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾»[1].

وتتواصل محاسبة الكاتب نفسه ليتكشف لنا مصادر القلق والخوف اللذين يتملكان فؤاده حين ينظر إلى مسيرته الفكرية وكفاحه القلمي، إذ تتوغل المحاسبة إلى أعماق الباطن إلى النيات التي لا يطلع عليها إلا اللّه:

---

(١) الذكريات: ٣/٢١١-٢١٢.

«إني من ستين سنة أعلم وأكتب وأخطب وأحدّث، اللهم لا أدّعي أن ذلك كُلّه كان خالصاً لوجهك، وليته كان. ولكني بشر أطلب ما يطلبه البشر من المال الحلال، ويسرني المديح، وتستهويني متع الدنيا، فهل يضيع لذلك جهدي كله؟! هل أخرج فارغ اليدين لم أنل شيئاً من الثواب؟!

إني لأمتحن نفسي، أُسائلها كل يوم، هل كانت الدنيا وحدها همي؟ لو عرض علي أضعاف ما آخذه الآن على مقالاتي وكتبي وأحاديثي، على أن أجعلها كتبا ومقالات وأحاديث في الدّعوة إلى الكفر، هل كنت أرضى؟ فليست إذن كلها للدنيا، كما أنها ليست مبرّأة من مطالب الدنيا.

قلت لكم: إني أفكر في الموت، وأعرف أني على عتباته، إنّه يمكن أن أعيش عشرين سنة أخرى كما عاش بعض مشايخي، وكما يعيش اليوم ناس من معارفي، ولكن هل ينجيني ذلك من الموت؟ فما الذي أعددته للقاء ربي؟!!

اللهم إني ما أعددت إلا توحيداً خالصاً خالياً من الشرك، وإني ما عبدت غيرك، ولا وجَّهتُ شيئاً مما يعد عبادةً إلى سواك، وإني أرجو مغفرتك، وأخشى عواقب ذنبي، فاللهم ارحمني واغفر لي»[1].

ويحاصر نفسه كثيراً ويزداد في التضييق عليها ليحصل على إجابة حاسمة تريحه، ولكنه يخشى أن يجامل نفسه، أو يخشى أن تخدعه نفسه فتزين له عملها وتغره في لحظة المحاسبة كما غرتهُ – إن كانت قد غَرّته فعلاً – في ساحة العمل؛ لذلك يتجه إلى قاضٍ محايد هو القارئ، فيضع بين يديه: اتهامه لنفسه، ودفاعه عنها ويترك له الحكم:

«أنا أكتب من ستين سنة كاملة، وآخذ على ما أكتب أجراً، لأنني كاتب محترف، كتبت آلافاً وآلافاً من المقالات، وأنا أحاسب نفسي الآن، وطالما حاسبتها قبل الآن؛ فأتساءل: هل أخذ الأجرة من الناس يذهب ما آمل من الثواب عند اللّه، وأخشى أن أكون قد قضيت لنفسي، وأنا أعرض قضائي على القراء لأسمع ما لهم فيه من الآراء.

---

(١) السابق: ٧/٢٩٣.

أنا أولاً أسأل نفسي، فأقول: يانفس هل كنت تكتبين ما يخالف الدين ولو أعطيت على كتابته الملايين؟

فأجد الجواب اليقيني الصادق: أن لا.

وأسألها: إن لم يكن في الساحة من لم يُنْكر المُنْكر في الساحة غيرك يانفس، وكان الإنكار واجباً شرعاً، هل كنت تمتنعين عن إنكاره، لأنّك لم تُعطي أجرة الكتابة؟ فأجد الجواب اليقيني الصادق: أن لا.

وأنا أقول ما كنت أقوله من قبل، هو: أني ما بدّلت - بحمد اللّه - ولاغيرتُ، وما قلت يوماً كلمة الباطل وأنا أعرف بطلانه، وإن صرت أعجز - أحياناً - عن أن أعلن كلمة الحق»[1].

ومن صور المحاسبة ما يتعرض فيه الكاتب لبعض الأعمال التي أقدم عليها في فترة ما من حياته، يتعرض لها وقد فقد الاتصال بها، وخفت في نفسه دواعي الإقدام عليها وبرئ من المغريات، فيعاتبها ويلومها إن أخطأت، ويتفحص ما صاحبها من النية إن أصابت، لأن عمدة الأعمال النيّة - كما ثبت في الحديث الصحيح[2] - :

«... لما عرضوا عليّ أن أتكلم في الرائي ترددت وخشيت أن يكون ظهوري فيه دافعاً لبعض الناس إلى اقتنائه، وربما رأوا فيه ما يضرّهم فأكون أنا السبب في ذلك، ثم لمّا ألحوا عليّ ورأيتُ النَّفع في ذهابي اشترطت عليهم شرطاً ولم أكن - أقول لكم الحق - من العباد الزاهدين، ولامن المتشددين المتزمتين، ولكن أحببت أن ألقنهم درساً، وأن أظهر عزّة العلماء، فاشترطت عليهم ألاّ أرى في طريقي إذا دخلت بناء الرائي امرأة سافرة. فخبَّؤوا البنات في الغرف، وأغلقوا عليهن الأبواب، ومنعوهن من الخروج. وصارت حادثة تروى ويتحدث بها وما أدري هل أحسنت بذلك أم أسأتُ؟

---

(١) السابق: ١٣٩/٨-١٤٠.

(٢) يقول الرسول الكريم ﷺ: **«إنّما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى اللّه ورسولِهِ، فهجرته إلى اللّه ورسوله. ومن كانت هجرته لدنيا يصيبُها أو امرأةٍ يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»** صحيح البخاري حديث رقم ١ و٥٤ جـ١/١٥، ١٦٤ (بشرح فتح الباري لابن حجر العسقلاني).

هل طبقت حكم الشرع فكان خيراً، أم وضعتُ في نفوسهم صورة قبيحة عن تزمت المشايخ وعن شدّتهم؟!»[١].

ومنها محاسبة نفسه على ما أقدم عليه حين ألقى كلمة حماسية في الإذاعة تدعو إلى انفصال سوريا عن مصر أيام الوحدة بينهما. وقد شهد كثير ممن كتب مذكرات عن هذه الحقبة من تاريخ سوريّا بما كان لكلمته هذه، وخُطبهِ قبلها وبعدها من أثر كبير في الناس، وذكر بعضهم أن مناطق في سوريا ما أيّد أهلها الانفصال إلا بعد ما سمعوا كلمته[٢]، قال:

«ذهبتُ إلى الإذاعة فألقيتُ هذه الكلمة وسمعها الناس، وعدت إلى داري... ارتضاها وأثنى عليها جمهور من الناس، وسخطها وذمها وذم قائلها جمهور من الناس. وأذاعتها أو أذاعت فقرات منها إذاعات عربيّة كثيرة، وعلق عليها الموافق والمخالف، الصديق والعدو، حتى إذاعة إسرائيل أعادتها مرّات، وعلقت عليها بما شاءت وشاء لها هواها، وبغضها العرب والمسلمين، وكتبت عنها الصحف.

وهذا هو مقياس النجاح الإعلامي، ولكني أحاسب نفسي الآن فأفكر وأسأل: هل كنتُ مصيباً فيها أو مخطئاً؟ لا بالمقياس الإعلامي بل الإسلامي، هل أثاب عليها [أو] أؤاخذ بها؟ ألا يمكن أن أكون قد أعنتُ بها على زيادة الفرقة والانقسام؟

إن لي نفساً لوّامة، أعمل العمل ثم أعود فألوم نفسي عليه، وأحاسبها به في الدنيا قبل يوم الحساب، فهل أنا المخطئ فيها الملوم عليها؟ هل يلام من يشتكي وقع السياط عليه ويصرخ أو يشتم، أم يلام من يضربه بغير وجه حق؟

أما رأي الناس فلا أزعم أني لا أبالي به أبداً، ولكن أقول صادقاً إنني لا أبالي به كثيراً، إن الذي يهمني ألاّ أسخط اللّه علي، وألاّ أعمل عملاً أعرض به نفسي لعقابه، فهل يعاقبني اللّه على هذه الكلمة، وعلى موقفي يوم الانفصال؟

اللّه يوم القيامة لا يسألنا فقط ماذا عملتم، بل يسألنا لماذا عملتم؟ أي أن اللّه يحاسب على النيات مع حسابه على الأفعال. بل إن المعول عليه ما في القلب،

---

(١) الذكريات: ٦/٩١-٩٢.

(٢) ذكر لي ذلك د. محمد منير الغضبان: مقابلة معه بتاريخ: ١٤١٧/٨/١١هـ مكة المكرمة.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي تختبر النيات، وما تنطوي عليه الضمائر. والله يعلم أنني ما أردت بها جلب منفعة لي، ولا جلبتها، ولا أردت دفع مضرّة عنّي، ولادفعتها. بل أردت بها المشاركة في إقامة الحق، وفي إنكار المنكر، وفي ذم السيء، وفي مدح المحسن»[1].

وقد كانت فترة القضاء من أخصب فترات حياة الطنطاوي، وأكثرها إحساساً بذاته وعملاً على تحقيق مآربه الإصلاحية داخل المحكمة وخارجها، ولكن هاجس الخوف من (الظلم) و(الجور) و(الاجتهاد الخاطئ) ظل يرافقه مدة كتابته لذكريات القضاء. وقد أخذ في وزن الأعمال التي أقدم عليها خلال هذه الفترة بميزان الحق، يعرضها للقارئ بحياديّة تامّة ولكن حياديتّه هذه لا تمنعه من أن يحكم لنفسه أحياناً إذا تبين له صحة ما أقدم عليه، كما يحكم عليها إذا أخطأ.

ومن ذلك إقدامه على العمل بالقضاء على ما يحفه من الأخطار وما يكتنفه من المزالق، لاسيما حين يكون القانون وضعيًّا لا يراعي متطلبات الإنسان وحاجاته:

«كنت أحاول في المحكمة أن أتحرى الحق، وأسلك طريق العدل، على مقدار ضعفي وعجزي، وكنت أرجو رضى الله، ولكني شعرت في هذا اليوم الذي أُعد فيه هذه الحلقة بالخوف من عواقب دخول القضاء، وتمنيت لو أني لم أكن دخلته، ذلك أن ابنتي المحاضرة في الجامعة في جدّة، خبرتني أن إحدى الطالبات راجعتها تقول: إنها تستحق درجة أعلى مما قدرت لها، فعادت إلى أوراقها، فرأت أنها قد أخطأتْ في الحساب، وخشيت أن تكون قد أخطأت مع غيرها من الطالبات، فسهرتْ ليلها كله لم تنم، تعيد الجمع والتقسيم، وتسألني ماذا تعمل؟ فأجبتها، ثم رجعت إلى نفسي فساءَلْتها فقلتُ: ويحك يانفس ماذا تصنعين إذا كُنتِ قد أخطأت الصواب في بعض ما أصدرتِ من أحكام؟ وطار النوم من عيني أيضاً. وخفتُ الله حقّاً، وفهمتُ لماذا كان أكابر العلماء يفرّون من القضاء.

لقد فرّ أبو حنيفة ومالك، وسفيان الثوري، وكثير من أمثالهم، ومن هو قريب منهم، إذا رجعتم إلى كتاب (تاريخ قضاة الأندلس) لوجدتم طائفة من

---

(١) الذكريات: ٦/٧٣-٧٤.

أخبارهم. فكيف أقدم أنا عليه؟ هؤلاء بحور العلم وأنا بركة صغيرة قليلة الماء، فكيف وسعت بركة صغيرة ما ضاق عنه البحور المحيطات؟ لقد حكمت في أكثر من خمسين ألف قضيّة، فإن أخطأت في واحد من الألف منها؛ لتعلق خمسون مسلماً بعنقي يوم القيامة، يريدون أن يأخذوا من حسناتي، وما أقل ما ادخرتُ لذلك اليوم من حسنات. لذلك تمنيت لو أني ما دخلت القضاء، ولا ذبحتُ نفسي بغير سكين.

فاللهم تداركني بعفوك ورحمتك، وإن أكن أخطأت فظلمت أحداً، فأرضه يا ربي عني بفضلك، فإنك تعلم أني ما تعمدتُ ظلم أحد»[1].

والطنطاوي لا يرى أنه مسئوْل عن ذاته فحسب، ولكن يرى أنه مسئول عن القارئ، وهذا هو الإخلاص الحقيقي للقارئ الذي يثق بمكانة الطنطاوي وعلمه وصدقه وحرصه على مصلحة أمته وقيمها. ولذلك كان الطنطاوي كثيراً ما يقف بعد أن يذكر شيئاً مما يرى أنه حاد فيه عن الطريق الأولى يقف مخاطباً القارئ وموجّهاً له ومبتعثاً من ذاته والموقف روح الفقيه ودوره، فيقول مثلاً وقد ذكر عن نفسه أنه كان يتمرّد على رؤسائه ولا يستجيب لتعليماتهم:

«وأنا لا أرى للشباب أن يقلّدوني، ولكن أذكر ما كان، وأنا أعلم أنّه لا يستقيم أمر أُمَّة إذا تمرّد موظفوها على رؤسائهم، أو تكبر عليهم رؤساؤهم، إنما يستقيم أمرها إذا وَقَّر صغيرها كبيرها، ورحم كبيرها صغيرها، واتبعوا في ذلك منهج الإسلام، وسُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم»[2].

ويقول في محاسبته لنفسه على ما كان يرتجله من إصلاحات إدارية وقانونية دون الرجوع إلى رؤسائه:

«إني لأفكر الآن؛ فأتساءل: هل ما عملته صواب؟ ولو سئلتُ عن مثله هل أفتي به، وأنصح السائل بأن يعمل مثل ما عملت! أظن بأن الجواب: لا. لأننا لو تركنا لكل موظف أن يجتهد رأيه، وأن ينفّذ ما يراه من غير أن يرجع إلى رئيس يملك حق

---

(١) السابق: ٦/ ٢٧٠–٢٧١.

(٢) السابق: ٣/ ١٧١.

البت في الموضوع، لصارت الأمور فوضى، ولفسدت حياة الناس. فالذي عملته كان بالمصادفة خيراً، ولكن عمل مثله وجعله قاعدة يكون منه شر مستطير»[١].

ويصعب المضي في استقصاء المزيد من الشواهد، ويغني عن ذلك الإحالة إليها[٢].

٣. الإنصاف والعدل:

الإنصاف والعدل من أبرز صور الصدق في الذكريات، ومشاهدهما كثيرة لو طلب الباحث الاستقراء، ولكن حسب الباحث الإلماح إلى بعضها على وجه الإيجاز:

(أ) وأول مظهر من مظاهر الإنصاف والعدل ذكر ما للشخصية التي يتعرض لها من الصفات الحسنة وما عليها من العيوب، مهما كانت عزيزة عليه أو قريبة منه. لاسيما حين يتطلب الموقف بيان ذلك إحقاقاً للحق، وإنصافاً للشخصية بذكر ما لها وما عليها. فمن ذلك أنه حين ذكر فخري البارودي – وهو من زعماء الكتلة الوطنية، وكان من وجهاء دمشق – وصفه بأنه:

«محبوب خفيف الروح، صاحب نكتة، من الوجهاء والأغنياء، يخطب بلغة وسط بين العامية والفصحى، مملوءة بالنكات تضحك الناس، أبوه من وجهاء البلد...»[٣].

عاد فذكر جانباً آخر لا يرضاه فيه وهو أنه:

«يتبع أحياناً غير سبيل الاستقامة، لا في المال فهو أمين ما عرفت عنه خيانة مالية، بل في التشاغل باقتناص اللذات...»[٤].

وفي موضع آخر وصفه بأنّه:

---

(١) السابق: ١٩٨/٤.

(٢) للوقوف على نماذج أخرى للمحاسبة وعتاب النفس ينظر: السابق: ٤١/٤، ١٧٦–١٧٨، ١٩٨ و٢٣٦/٦ و٧٦/٨.

(٣) السابق: ١٩٤/٣.

(٤) السابق: ١٩٤/٣.

«أبرز الزعماء الوطنيين الشعبيين في دمشق، غني واسع الغنى، كريم شديد الكرم، خفيف الروح، ساحر الحديث، حاضر النكتة»[١].

ثم عقب على ذلك فقال:

«لكن الناس يتهمونه تهمة شائعة، وقالة سوء قيلت عنه، ما حققتُها وأستغفر اللّه من روايتها من غير تأكد منها، ولكن الذي حققتهُ وتأكدتُ منه أن ولعه بالموسيقى، وحُبَّه للفن أوصله إلى فكرة شيطانية ما أحسب أنها خطرت في بال إبليس نفسه. وهي أن ينقل رقص السماح هذا من المشايخ والكهول ذوي اللحى إلى الغيد الأماليد والصبايا الجميلات من بنات (دوحة الأدب) التي دعوتُها يومئذٍ (دوحة الغضب)»[٢].

وقد اعترف الطنطاوي بأنه كان يجيب رغم ذلك دعوته ويحضر حفلاته، ويخطب فيها، وأنه كان بينهما تعاون، لأن البارودي من زعماء الكتلة الوطنية وكان الطنطاوي قائداً لطلاب سوريّا الذين يعملون بإمرتها[٣]. ولم يمنعه كون عبدالقادر المبارك شيخه، وأحد أكبر الأساتذة الذين تتلمذ عليهم وأخذ عنهم العربية الصافية والحماس لها، وكونه والد زميله وصديقه الدكتور محمد المبارك – رحمهما اللّه – أن يقول ما يعرفه من الحق عنه فيصفه – من غير جحود ولا نكران – باللين والضعف أمام المسئولين[٤]، وكان قد أثنى عليه قبل ذلك مراراً وبيّن مكانته العلمية وسعة اطلاعه وحفظه، وأثره فيه وفي جيله[٥].

ومن مظاهر العدل والإنصاف تنبيه الكاتب على خطأ الشيخ عادل العلواني زميله بمحكمة دمشق حين ذكر عنه أنه أبرق إلى حسني الزعيم يؤيده في إصدار

---

(١) السابق: ١٠٣/٥.

(٢) السابق: ١٠٣/٥–١٠٤.

(٣) ينظر: السابق: ١٩٤/٣ و١٠٣/٥.

(٤) ينظر: السابق: ١٧٢/٣.

(٥) ينظر: السابق: ١١٨/١–١٢١.

obeikandl.com

القانون المدني[١]، وإلغاء (المجلة) التي كانت تمثل القانون الشرعي. وقد جاء ذلك في (الهامش) تعليقاً على ما ذكره عنه من الصلاح والنزاهة[٢].

ومن الإنصاف أيضاً تعداده لمزايا نوري باشا السعيد قائلاً:

«لا يمنعني أني كتبت عنه وأني هاجمته يوماً أن أذكر مزاياه، لقد مات الرجل وصار بين يدي اللّه، حسابه عليه. وصارت أعماله مِلْك المؤرخين، يحكمون في الدنيا بها عليه...

... كان جريئاً... وكان كريماً... وكان بغداديًّا أصيلاً، عارفاً بمواضعات أهل بغداد وأسلوبهم في كلامهم، ومصطلحاتهم فيما بينهم، وطالما أنقذه ذلك من مآزق. ولكني مع ذلك لا أُبرئه ولا أُبرئ عبد الإله، وهو ابن عم غازي من دمِ غازي...»[٣].

كما ذكر عن (ساطع الحصري) أنه كان مفكراً من السابقين إلى الاشتغال بالتربية بمفهومها الحديث من عام ١٩٠٨هـ في تركيا ثم الشام ثم العراق، وقد تسلم المعارف من بابها إلى محرابها – كما يقول – وأصدر يومئذٍ مجلةً كانت أولى مجلاتها، ثم أشرف على المعارف في سوريّة، ولكنه واصل فقال:

«هذه مزاياه، أمّا: هل أحسن أم قد أساء؟ وماذا كان موقفه من الإسلام؟ الجواب لا يرضيه لو كان حيًّا، ولا يُرضي تلاميذه ومحبيه، ولكنّه الحق، ولا يضر الحق أن أكثر أعداؤه وكارهوه.

كان العقل المفكّر لفتنة القومية، التي لم يأت منها إلا أننا كُنَّا أمَّة واحدة هي (أمّة محمد) فصرنا جمعية أمم، وكُنَّا إخوَة يجمعنا الحب في ظلال الإيمان، فصرنا أعداء تفرقنا هذه الدعوة الجاهلية... ولقد أفسد مناهج سوريّة لما دعا بعد الاستقلال لإصلاحها»[٤].

---

(١) ينظر: السابق: ٤/٢٦٤.

(٢) ينظر: السابق: ٤/٢٥٩–٢٦٨.

(٣) السابق: ٤/١٠٧–١٠٨.

(٤) ينظر: السابق: ١/٦٥–٦٦.

وانتقد مَرّةً مصحح كتاب (المعاصرون) لمحمد كرد علي، ووصفهُ بأنَّه كان يرفع الصواب الذي أثبته محمد كرد علي ويضع الخطأ الذي توهمه[١]. ولكنّه لما تبيّن له خطأ ظنّه بالمصحح اعتذر له وللقارئ بفكاهته المعهودة[٢].

وذكر أن بداية الدعوة الإسلامية المنظمة الحديثة في العالم الإسلامي الحديث كانت على يد خاله محب الدين الخطيب لما اقترح على صديقيه محمد خضر حسين وأحمد تيمور باشا إنشاء (جمعية الشبان المسلمين) ثم أنشأ الشيخ محمد خضر حسين (جمعية الهداية الإسلامية)[٣].

وكان يمكن للكاتب أن يمضي في حديثه دون أي انتقاد أو مراجعة من القارئ، لاسيما أن السبق الزمني يؤيد ما أثبته، ولكنه خالف هواه ودافع محبته لهؤلاء المؤسسين، وصلته بأعضائها الذين كانوا من معارفه وأصدقائه مثل عبدالمنعم خلاف، ومحمود شاكر، وعبدالسلام هارون وغيرهم، فتراجع وذكر الحقيقة التي يراها في ضرب من التعليل والتحليل، فقال:

«جمعية الشبان المسلمين لم تكن تجديداً في فهم الإسلام، ولم يكن لها عمل جدّي في الدعوة إليه، ولاكانت تصحيحاً لمعتقدات العوام، ولامحاربة لبدع كانوا يتوهمونها أنها من الإسلام. وإنما كانت (وأنا هنا لبيان الحق لا للمجاملات) كانت تنظيماً ظاهريًّا فقط، ولعل اشتغال أعضائها بالرياضة، وإقامة الحفلات لها، أكثر من اشتغالهم بالعلم والدعوة.

وجمعية الهداية كانت تنظيماً ظاهريًّا لعمل المشايخ في الدّعوة إلى اللَّه تلقى فيها المحاضرات لا تكاد تحس فيها جديداً. أمّا الدعوة المنظمة الحقيقية فقد بدأت على يد شاب اسمه (حسن البنا)...»[٤].

---

(١) ينظر: السابق: ٥/٢٥٨ ذكر ذلك في الحلقة رقم (١٤٩).

(٢) ينظر: السابق: ٥/٢٧٦، في الحلقة رقم (١٥١). كما انتقد الشيخ علي عبدالرازق ثم ذكر شيئاً من حسناته. ينظر: السابق: ٣/٣٦-٣٧.

(٣) ينظر: السابق: ١/٢٦٠، ٢٦١.

(٤) السابق: ١/٢٦١-٢٦٢.

(ب) وهذا يدل على أنّ حرصه على العدل والإنصاف ليس مقصوراً على ما يعرضه عن الأفراد أو الشخصيات، بل يشمل الأفراد وغيرهم، كالأجناس والحضارات والأزمان والدعوات وهذا هو المظهر الثاني من مظاهر الانصاف والعدل. فحين هاجم الأطباء بما يعرفه عنهم من المعايب في حلقة كاملة؛ عاد فأفرد لمحاسنهم حلقة كاملة مباشرةً حتى يوازن بين الصورتين فلا تميل إحداهما على حساب الأخرى، فلا يظلم القارئ ولا يظلم الأطباء ولا يُصادر أيًّا من الحقيقتين[١].

وهو لا يُقَدِّم زماناً على آخر ولا يفضل الماضي – وإن حنَّ إليه – على الحاضر كما يفعل لداته من الشيوخ، بل يرى أن لكل منهما حسناته وسيئاته[٢]. وعندما يوازن بين السفر قديماً وحديثاً ينصف غاية الإنصاف؛ إذ يذهب إلى أننا قد كسبنا في الحاضر وبفضل التقنيات الحديثة الزمن والراحة في أسفارنا، ولكننا بإزاء ذلك فقدنا المتعة والذكريات والمشاعر التي نتسلى بها ونملأ بنوادرها المجالس والأسمار[٣].

ولا شك أن العدل والإنصاف يتطلب فكراً وعزماً وقوّةً وجلداً؛ فأما الفكر فيقيس به ويوازن ويحكم على بيِّنة وعلم، لأن من الحقائق ما هو مشكل يحتاج تحريّه إلى جهاد وتمييز، وأمّا العزم فيدفع إلى طلابه وتحريه، وأمّا القوّة فتعينه على أن يصدع به، وأما الجلد فيدفعه إلى الاستمرار واحتمال ما يناله في سبيل غايته من أذى أو لوم. والحق أن السعي إلى الإنصاف والعدل شيء مركب في نفس الكاتب لا يتصنعه ولا يغالب فيه نفسه، بل هو شيء فطر عليه فلو رام التخلي عنه أو المداهنة فيه لآذاه ضميره وأنَّبته فيه نفسه، يقول:

---

(١) ينظر: السابق: ٤/٢١٩–٢٣٨ الحلقتين (١١٨، ١١٩).

(٢) ينظر: السابق: ٦/٢٥٤–٢٥٥ و٨/١٤١.

(٣) ينظر: السابق: ٣/٥٤. وللوقوف على نماذج أخرى في هذا الإطار ينظر: إلى ماكتبه عن الفرنسيين وما أثبته لهم من الحسنات برغم كرهه لهم وبغضه إياهم: ٤/٢٠٤–٢٠٥ و٥/٢٦٣–٢٦٤، ٢٦٥–٢٦٦ و٨/١٤٥. وينظر: إلى موقفه من الحضارة الغربية ١/٢١٨–٢١٩ وموقفه من شهداء المرجة: ١/٤٧ و٤/٣١٣ و٥/١٤٧ وغيرها.

«من الناس من يبالغ في الشجاعة حتى يجرِّد سيفه ليقاتل طواحين الهواء، وأعمدة الكهرباء، ومن الناس من يغلو في الجبن.. (حتى إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً)، (يحسبون كل صيحة عليهم) ومن يتشدد في الطهارة حتى تصير عنده وسواساً وأنا أبالغ في الشعور بالظلم والإشفاق على المظلومين، ولو سمعتُ بمظلومٍ في المغرب وأنا في أقصى المشرق، أو قرأتُ قصته التي وقعت منذ قرون لم تمنعني شدّة البعاد، ولا اختلاف الآماد، من أن أغضب له، وأتمنى أن أردّ عليه حقّهُ، وأن أضرب على يد من ظلمه، حتى إني لأشاهد المسلسلة في الرائي فيها عادٍ ومعدوّ عليه، شيطان يأخذ ما ليس له بحق، ومغفل يعطي ماله لمن لا يستحق، فأتمنى أن أتمكن من العادي فأردّ كيده، وأعرّفه حقه، وهي مسلسلة خياليّة، كلها تمثيل في تمثيل»[1].

٤. الأمانة:

(أ) الحق لا يكون حَقّاً إلا إن كان مكتملاً وتامًّا، ومادام ناقصاً فإنّه يداخله من الباطل بمقدار ما سُكِتَ فيه عن الحق. لذلك يحرص الكاتب على أن يوضح الحقيقة كاملة وتامَّة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كما يحاول أن يفسر أو يوضح ما قد يستبهم على الفهم أو يكون مظنة للخطأ زيادةً أو نقصاناً. وأسوق ثلاثة نماذج توضيحية تقرب الفكرة وتجلو المراد.

– يقول الكاتب:

«... إنّهم لما وحّدوا المدرستين: كُليتنا هذه [أي الكلية الشرعية] ومعهد العلوم الشرعيّة الذي أنشأته الجمعية الغرّاء، وكنت رئيس هذه العمدة الموحّدة بحكم كوني القاضي الممتاز في دمشق، أي: لوظيفتي الرسمية لا لعلمي ولا لفضلي»[2].

---

(١) السابق: ٢٦٩/٤ وللوقوف على نماذج مختلفة من الإنصاف والعدل، ينظر: ماكتبه عن د. صبحي راغب: ٢٢٧/٢–٢٢٨، وشكر الحنبلي: ١٧٠/٢، ٢٧١ وخطيب جامع الشهداء: ١٥٨/٢، والشيخ أحمد الصابوني: ٤٤/٢–٤٥ و٢١٨/٨، ٣٤٧ والموازنة بين الشيخين: على الخفيف وعبدالوهاب خلاف: ١٦٨/٢–١٦٩ وتبرئته للشيخ علي الدقر من الركون إلى العقيدة التيجانية: ٨٣/٧–٨٤. وإشارته إلى هفوة جدّه الطنطاوي: ١٥٨/١.

(٢) السابق: ١٠٥/٤.

فنصف الحقيقة: «**كنت رئيس هذه العمدة الموحّدة**» ونصفها الآخر المكمل للمعنى: «**بحكم كوني القاضي الممتاز في دمشق، أي: لوظيفتي الرسمية لا لعلمي ولا لفضلي**». ولاشك أنه لو وقف على الجزء الأول لما استطعنا أن نصفه بالكذب لأنه صادق فيما قال، ولكنها عبارة موهمة تجعلنا نذهب في تعليل الأسباب مذاهب تمجد الكاتب. وحرصه على بيان الأمر وجلائه دليل على أمانته وصدقه وتواضعه.

– ويعترض الطنطاوي على الطريقة التي تم بها معاقبة طالب في العراق اتُّهم بنشر الشائعات فيقول:

«... **طريقة أغمضت عيني فلم أستطع مشاهدتها، بل لم أستطع أن أمسك لساني عن نقدها، وإن لم يسمع ما قلته إلا من كان حولي**»[1].

ولتتأمَّل الآن لو أن الطنطاوي لم يذكر الجملة الثانية التي تحدد المعنى «**وإن لم يسمع ما قلته إلا من كان حولي**» كيف كان سيذهب خيالنا بعيداً فيصور لنا الكاتب وقد انطلق في نقده وسط الجموع غير مكترث بوجود الجنود والضباط ومسئولي المحكمة العسكرية، وكنا نسجل له هذا الموقف ضمن سجل جرأته وشجاعته وصدعه بالحق في كل الظروف. ولكن الطنطاوي أشفق على الحقيقة من الظن الباطل وتخلى عن المجد المزيف الذي لم يكن بينه وبين أن نخلعه عليه إلا الصمت. والصمت في مقاييس البشر جميعاً ليس كذباً. ولكن الطنطاوي شعر أنه كافٍ ليضيع الحقيقة فلم يصمت.

–وقد أنشأ الطنطاوي في شبابه عدداً من المسرحيّات، وعمل على إخراجها

---

(١) السابق: ١٠٩/٤. وقد وصف في الصفحة نفسها هذه الطريقة فقال: «**جاؤوا بخشبة لها سطح مائل فأقاموها وسط الباحة، وجاء ضابط كبير معه جنود، وطالب صغير من طلاب المدرسة، فقرأ الضابط حكماً من المحكمة العسكريّة، أو قراراً من القيادة... بأن الطالب قد ثبت أنه قد اشترك في طبع هذه المنشورات، التي تنشر الشائعات، وتفسد المجتمع، وتضعف الأمن... وأنه قد حكم عليه بخمس جلدات... لقد أوقفوا الطالب أمام هذه الخشبة، وجهه إليها، وقيدوا يديه بسيور من الجلد مثبتة فيها، وحلوّا زنّاره، وأنزلوا بنطاله وما تحت البنطال، حتى كشفوا إليتيه أمام الحاضرين جميعاً، ووضعوا عليهما خرقة قالوا إنها معقمة، مبللة بمحلول برمنغنات، ثم جلدوه فوقها. ولم يكن الجلد مؤلماً، ولكنّ المؤلم كشف عورته وفضيحته حتى إنه انقطع عن المدرسة، فلم أره من بعد فيها أبداً، فكان في هذه الجلدات الخمس القضاء عليه وقتله نفسيًّا**».

مسرحيًّا واستحدث فيها – كما يذكر – بعض الأعراف المسرحيّة الجديدة، وخرج على ما تواضع عليه المسرحيون من الحدود والضوابط. وأشار إلى إفادته ممن سبقه في هذا المجال الفني وهو الدكتور أسعد الحكيم. وقد كانت هذه المحاولات بعد مرحلة (القباني)[١]. ولكيلا يتوهم القارئ خلاف الواقع قال:

«الذي جاء به الدكتور الحكيم، وجئت به أنا ليس تمثيلاً مسرحياً كاملاً، ولكنّه تمثيل مدرسي بمقدار ما يمكن لإدارة المدرسة ولتلاميذها أن يقوموا به»[٢].

(ب) ومن الأمانة أيضاً في الذكريات: تمييز الكاتب بين الأخبار التي يقف عليها ويرويها، والأخبار التي لم يتحقق منها، والحكم عليها:

«أحسب أن المدرسة النوريّة التي دفن فيها السلطان العظيم نور الدين هي دار هشام بن عبدالملك. سمعت ذلك من بعض أساتذتي، ولم أُوثّقه بمعرفة مصدره»[٣].

ومثل صنعه فيما رواه من أخبار عن عمٍّ جدِّه (والد جدّته لأبيه) (علي مصطفى) فقد بيّن للقارئ قبل الشروع في سردها أنّه لم يستقصها ولم يتحقق منها[٤]. وقد يجتمع في المعرض الواحد ما رآه أو سمعه بأذنيه وما تناهى إليه خبره على وجه مستفيض فوثقه وقوّاه، وما سمعه عن غيره أو قرأه ولكنه شكك فيه وردّه:

– «ومن الأقوياء محمد علي بك العظم. كان يقعد على باب داره في الجسر الأبيض، فرأى مَرّةً عربة قد جمحتْ خيولها فاندفعتْ نازلة في هذا المهبط الخطر، وفيها امرأة معها طفلان، وهي تستجير وتنادي فصرخ: (يا اللّه) ووثب فأمسك بمؤخرة العربة، وجرى معها قليلاً حتى أبصر ثغرة بين حجرين من حجارة الشارع، فثبت قدميه فيها، وصبّ قوته في ذراعيه، ورجع بجسده إلى الوراء، وهو يدعو اللّه متضرعاً بصدق وإيمان وانفعال، والناس ينظرون مدهوشين وقلوبهم معه ومع المرأة،

---

(١) السابق: ٣/٢٢٩–٢٣٠.

(٢) السابق: ٣/٢٣٠ وينظر نموذج رابع: ٣/١٧٠–١٧١ (قدرته على غلق الأسواق وتحريك البلد).

(٣) السابق: ٤/٢٥٥.

(٤) ينظر: السابق: ١/١٣٤.

فوقفت العربة، وعجز الفرسان عن جرّها. ولولا أن الحادثة رآها الكثير. وحدّثني بها غير واحدٍ ممن رآها ما رويتها...

على أن من أخبار القوّة ما يشتهر ويستفيض وهو غير صحيح، ألم تسمعوا مرّة أن فلاناً من الناس بلغ من قوّته أنه يمسك الدينار بأصبعيه فيخرجه أمسح ما عليه كتابة... إنها قصة مشهورة حتى إني قرأت مَرّة عن أميرة من مصر كانت معروفة بالقوّة، وكان أخوها مثلها فأرسلت إليه دنانير ليشتري لها قمحاً، فساءه إرسالها المال، فمسح الدنانير بأصبعيه، وقال لها دنانيرك رديئة. فأخذت حفنة من القمح وضغطت عليها فكسرتها، وقالت له: قمحك سيء.

ولا أدري أي الخبرين أكذب من الآخر، وكلاهما مستحيل عادة، ولو كانت أصبعه أو أصبعها مبرداً، وكان مقدار قوتها وزن مئة كيل (كيلو غرام) لانثقبت الكفّ، لأن المقاومة أقل من القوّة. ولكن الناس يتساهلون ويتسامحون عند سماع مثل هذه الأخبار»[1].

– «أما هاشم الأتاسي، فقد كان خيراً منهم، بقي بابه مفتوحاً للجميع، وبقي أباً للجميع. لم تختلف حياته وهو رئيس عمّا كانت عليه قبل أن يكون هو الرئيس. حتى الشرطي الذي أوقفوه على باب داره، قال له يوماً – وأنا أسمع – عشية ليلةٍ باردةٍ: يا بني رح إلى أهلك وأولادك؛ فاسهر معهم ونم عندهم، فإنها ليلة باردة، وأنا لا أحتاج إليك، فالحامي هو اللّه»[2].

ومثل ذلك – وله شواهد عِدّة في الذكريات – مما يدل على عناية الكاتب بما يسوق من الأخبار أو المعارف، ويدل على احترامه لذاته أوّلاً فلا يلبسها رداء الكذب، وهي منه براء، وفيه تقدير للقارئ فلا يروج عليه الأحاديث لمجرد أنه وثق به وصدّقه.

(جـ) ومن مظاهر الأمانة أيضاً: نقل تشككه أو تردده إلى القارئ إذا اختلط عليه الأمر فيما يذكره، حتى يحفز القارئ إلى التحقيق والبحث، أو حتى – وذلك على أقل تقدير – لا يكون قد كذب عليه متعمّداً، مثل:

---

(١) السابق: ٣/١٥٤–١٥٥ وللوقوف على نماذج أخرى ينظر: السابق: ١/١٣٧، ١٦٩ و٣/٩١، ٢٩٥ و٤/١٠٧–١٠٨، ٢١١–٢١٢ و٥/١٠٣–١٠٤.

(٢) السابق: ٤/٩٧.

— «المحامي سعيد الغزاوي الذي ولي — كما قلت — الوزارة مراراً، وصار رئيسها مرّة أو مرّتين، لم أعد أدري»[١].

— «كان رئيس حكومة المديرين بهيج الخطيب، وهو قريب الشيخ فؤاد الخطيب الشاعر العربي الذي تعرفونه، أحسبه أنه أخوه ولا أؤكد ذلك الآن»[٢].

— «لما زرت مدينة هانوفر سنة ١٩٧٠م وجدتُ في بلديتها أو بلدية فرانكفورت (نسيت) خريطة مُجسَّمةً...»[٣].

— «كانت الرويس قرية — ولست واثقا من هذا الذي أقول فالصورة قد بهتت لطول العهد بها»[٤].

— «وكان أبوها — فيما أظن — وزيراً»[٥].

(د) وميل الكاتب إلى توثيق نقوله، ونسبة ما يورده من آراء أو ينتصر له من أفكار إلى من صدرت عنه، مظهر رابع من مظاهر الأمانة.

فعندما عَنْوَنَ الحلقة المئة والثلاثين بـ (ذكريات جزائريّة) أشار إلى أنّه قد استعار العنوان من الأستاذ أكرم زعيتر[٦]. وأفاد من قول لأبي الحسن الندوي جرى مجرى الأمثال، وهو قوله: «**ردّة ولا أبا بكر لها**» ثم نسبه إلى صاحبه[٧]. ولَمّا قال في الشيخ محمد نصيف — رحمه اللّه — : «**إن من زار جدّة ولم يزر الشيخ نصيف فما زار جدّة**»[٨] باشر القارئ بقوله: «**سرقت المعنى من قول ذي الرُّمَّة:**

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام»[٩]

---

(١) السابق: ١٢/٧.

(٢) السابق: ١٤٣/٤.

(٣) السابق: ١٤٢/٣.

(٤) السابق: ١٢٥/٣.

(٥) السابق: ١٠/٣.

(٦) ينظر: السابق: ٤١/٥.

(٧) ينظر: السابق: ٢٢٣/٨، ٣٣٦.

(٨) السابق: ١٢٦/٤.

(٩) السابق: ١٢٦/٤.

وأجاب الطنطاوي بإجابة دقيقة ومقنعة على تساؤل عن كون الطلاق بيد الرجل، وقد نسب الإجابة إلى معروف الدواليبي، وامتدحها بأنها أحسن جواب سمعه عنه[١]. ولو لم يكن الرجل أمينا لعرض الجواب دون نسبة، فلا شيء يشهد على أنه قد أخذه عن الدواليبي، بل إن اتصاله بالفقه ومكانته في الدعوة والإفتاء يهيئانه – دون غرابة – للوصول إلى هذه الرأي الصحيح، ولكنها الأمانة التي تحجز صاحبها عن الخيانة والتحايل ولو خلت السُّبل وغاب الرقيب.

وعندما كان الطنطاوي يوالي نشر ذكرياته في الشرق الأوسط، كتب الأستاذ عادل الصلاحي حاشية على بعض ما أورده الطنطاوي في صلب مقالته، ولم ينسبها الصلاحي إلى نفسه[٢]، لكن الكاتب حين أعد الكتاب للنشر راقته تلك الحاشية فأبقاها، ونسبها إلى الأُستاذ الصلاحي ونعتها (بالحاشية القيمة)[٣] وعلى الرغم من ضآلة الحاشية، وعدم اكتراث صاحبها بها فإن الطنطاوي لم يستبح لنفسه عدم الإشارة إلى صاحبها.

(هـ) ومن صور الأمانة أيضاً: الإحالة إلى الوثائق التاريخية والعلمية والنقل عنها كما فعل عندما اعتمد على تقرير رسمي لمندوب المفوض السامي الفرنسي المنشور بجريدة (الأحرار)[٤]؛ ونقل أيضاً من مذكرات الشيخ محمد إسماعيل بلهجتها العاميّة تأكيداً للحقيقة عند الحديث على الثورة السورية على الفرنسيين عام ١٩٢٥م[٥].

٥. نفي الخيال وإثبات الواقع:

لأن الطنطاوي لم يكتب مذكرات في وقت وقوع الأحداث يستطيع العودة إليها في تدوين ذكرياته، فقد كان يحاول التعويض عن ذلك بالرجوع إلى مقالاته

---

(١) ينظر: السابق: ٢٢٣/٧.

(٢) ينظر: السابق: ١٢٣/٤.

(٣) ينظر: السابق: ١٤٨/٤.

(٤) ينظر: السابق: ٢١٨/١–٢١٩.

(٥) ينظر: السابق: ٢١٩/١–٢٢٣ وينظر أيضاً: مناقشة تفسير المغربي: ١٩٩/٢–٢٠٠، واستخدام صيغة (ناشزة) للمؤنث ٢١٨/٤.

الأدبية التي كان قد كتبها من وحي تجاربه وحياته، فيستعين بها على تذكّر ما فاته من أحداث ودقائق ووضعها في موضعها زماناً ومكاناً.

وقد شعر الكاتب بأن صنيعه ذلك محفوف بالمخاطر فأكثر هذه المقالات لا يُؤمن لها كثيراً، لأنها كانت حُرّةً تستوحي التجربة من حياة كاتبها، ولكنها تحوّر الوقائع وتزيد فيها أو تنقص منها بحسب ما يشاء لها الفن أو تغري به الرغبة في التأثير أو المبالغة، أي: أنه لم يكن من شرط مقالاتهِ تلك: الصدقُ بمعناه الواقعي والخُلقي. وبتعبير الطنطاوي: «**كتبت تلك المقالات بقلم الأديب، وابتغيت فيها مسايرة الفن، أما الذي أكتبه اليوم عنها، فإنّه وصف لما وقع لا أريد منه إلا أن أذكر ما كان**»[١]. ولذلك جنح إلى الإفادة منها بقدر ما تسعفه من الحقيقة المبرَّأة – قدر الإمكان – من تزييف الخيال ومبالغته، وأصبح من الممكن الوقوع على قصتين أو روايتين – بتعبير أسلم – مختلفتين لخبر واحد. ويكفي أن يراجع القارئ مثلاً خبر رحلته إلى حلبون[٢] ويقابلها بما كتبه في مقالة له بعنوان (إلى حلبون)[٣] نشرت سنة ١٩٣١م فقد جاءت الرحلة في الموضعين، وكأنهما رحلتان مختلفتان في الأحداث والشخصيات والزمان وطبيعة المكان وما تخلعه على الموجودات في الرحلة من الأحاسيس وما تثيره في القرّاء من المشاعر.

أما حين تختلط الخيالات والأوهام بالحقيقة ويعجز عن فصل بعضها عن الآخر فإنّه يتوقف (ويمسك) تماماً عن رواية ما وقع له من حوادث مهما بلغت من الطرافة والأهمية كما صنع في غير موضع[٤].

---

(١) السابق: ٤/١٥٣.

(٢) ينظر: السابق: ٢/٢٩٦–٣٠٢.

(٣) ينظر: علي الطنطاوي: حديث النفس: ٥٧–٦٤ وينظر ماكتبه عن الرحلة إلى (دير الزور): الذكريات: ٤/١٥٣–١٦٠.

(٤) ينظر مثلاً: قصتهُ مع صديقه: أنور العطار حين دخلا حمى بلاط الملك غازي ولم يشعرا، إذ اعتذر عن رواية الحادثة قائلاً: «... ماذا كان بعد ذلك؟ لا أدري: أقول لكم الحق، إنني لا أدري!! لاما نسيت ولا أطار الفزع لبّي حتى ما أذكر ماذا حدث لي، بل لأننا جعلنا من الواقعة قصة أدبية أو نكتة، أسردها أنا بخيالي، لا من ذاكرتي، فأزينها وأزيد فيها، فيأخذ هو الوصف الذي انتهيت إليه، فيصنع فيه مثل الذي صنعته أنا، ولا نزال نبدئ فيها ونعيد وهي تكبر وتزيد، حتى لم أعد أعرف حقيقة الذي =

٦. الصراحة في النقد والتعبير عن الفكر:

يعتقد الباحث أن السيرة الذاتية وما شاكلها ليست مجرّد حكاية لما وقع من أحداث، ولا استبطاناً لمشاعره الإنسانية فقط، ولكنها صورة لما يعتنقه الكاتب من عقيدة وما يدين به من ولاء، وما يقتنع به من أفكار، وما ينتصر له من مبادئ أيضاً. فهي إلى كونها أحداثاً ينبغي أن تكون تفسيراً للحياة وتعبيراً عن كل مناشطها وجوانبها. وإذا كان الباحث يعتقد ذلك فإنّه يرى أن القدرة على التعبير عن الأفكار بصراحة، والخوض فيما يتهيب الناس الخوض فيه، وانتقاد الأنواع الشاذّة والأفكار المنحرفة بإقدام ووضوح وبعد عن الجمجمة والمداهنة، من الصدق. وما لم تكن السيرة تعبيراً عن أفكار كاتبها ومواقفه فإنها تصبح أكذوبة كبرى، لأنها تزفّ لنا الجسد بعيداً عن مضمونه وموقفه في الحياة.

وهذا أمر غير مفقود في الذكريات فقد قدّم لنا تقلباته في الحياة والمبادئ التي ناضل من أجلها، والهموم التي سهر على تحقيقها، والباحث لا يستطيع أن يقف على هذا الجانب لأنّه ليس من تساؤلات الدراسة ولا اهتماماتها، وما يركز عليه هنا، هو: القدرة على الانتقاد والتعبير عن الفكر. وقمين بمن قرأ الذكريات منصفاً ومحايداً أن يشهد لكاتبها بأنّه كان ممن يعبر عن أفكاره بكل جرأة وشجاعة ولو خالف هوى الناشر، وخرج على المألوف في المجتمع الذي يعيش فيه أو صدمه في بعض قناعاته ومسلماته؛ لأن الطنطاوي لا يرى لمواضعات المجتمع من سلطان عليه إلا بمقدار ما هي مستمدّة من المُشَرِّع الذي له وحده الحق في أن يأمر فيطاع. اقرأله مثلاً قوله عن المؤتمرات الإسلامية.

«لو أردنا تقويم (ولا تقل تقييم) المؤتمرات لوجدنا فيها خيراً كثيراً، لا شك في ذلك أبداً، وفيها أمور كنت أتمنى ألاّ تكون. أولها حب الكلام، فنحن أمّة البلاغة، وشعب البيان، ولكنها ما سميت بلاغة إلا لأنها تبلغ بنا الغاية التي نريد،

=

كان. ولكن أسرد عليكم إن شئتم الطبعة الأخيرة من هذه القصة» الذكريات: ٣١٤/٣ ثم لم يسرد هذه القصة لعدم توافر عنصر الصدق فيها.

وتوصلنا إلى المقصود، فإن لم تكن لنا غاية معروفة كان الكلام لمجرّد الكلام. ولا بد من الكلام على أن يكون بعده عمل، فكلام الطبيب سبب للشفاء، ولكن إن لم يعمل به فلم يشتر المريض الدواء، ولم يأخذه في مواعيده، لم يكن لكلام الطبيب نفع.

والثانية: أن هذه المؤتمرات فيها رجال كبار من أكثر أقطار العالم الإسلامي ولكن لم يختاروا اختياراً من أهل هذه الأقطار، ولم يوكلوا الكلام عنها ولا يلزمها الذي يقولونه بلسانها.

والثالثة: أن أيّام المؤتمر تنقضي ويعود كل من حضر إلى بيته، وينغمس في دنياه مقبلاً على عمله، وتصير أيام المؤتمر عنده كما صارت عندي الآن ذكرى من الذكريات...»[1].

وهو استطراد خرج به عند الحديث عن مؤتمر القدس الإسلامي الذي شارك فيه. وهو تقويم لا يخلو من نقد جريء وضح فيه تصوره وحكمه على هذه المؤتمرات بكل صدق ووضوح.

ومن ذلك أيضاً كلامه على معنى الديموقراطية، وتحديده لمعنى الشورى الإسلاميّة، ونقده اللاذع لما يسمى بالانتخابات البرلمانية والتصويت[2]، ويتساءل الكاتب عما يكفل له حريّة التعبير عن الرأي بالأسلوب الذي يتخذه هو لا بالأسلوب التي تدعو إليه المجاملات. وقد جعل هذا التساؤل المشروع نافذة لمصارحة فكرية يقول فيها:

«كنت أجد في تلك المجلات من المقالات ما ينير للطلاب السبيل، ويأخذ بأيديهم إلى الغاية، فصرنا اليوم... هل أستطيع أن أتكلّم بحريّة؟ هل أستطيع أن أقول ما الذي صرنا إليه، هل أستطيع أن أضرب المثل بما يجري في بعض الصحف والمجلات؟

أُمثّل بصفحة الأدب في (المجلة) فهي أخت هذه الجريدة [الشرق الأوسط]، وما يختاره أو يكتبه من يسمى (بلند الحيدري)، ولو شم رائحة البلاغة لبدّل اسمه.

---

(١) السابق: ٥/١٢٣–١٢٤.

(٢) ينظر: السابق: ٢/٩٧– ٩٩.

بلند؟ وما بلند، وما هو من أسماء العرب ولا العجم، ولا الإنس ولا الجن، ولا أعرف له معنى – أنا أعرف البلنط، وما في هذه الصفحة من (المجلة) كله بلنط في بلنط.

وأنا ما أريد أن أُسيء لأحد ولا أن أُسمّع به (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت) ما بي عداوته، وكيف أعاديه وأنا لم أشرف بمعرفته ولم أحظ بلقائه؟!

وسعوا صدوركم، واذكروا أن لكلمة الشعر معنى محدداً استقر في أذهان أهل العربية، من عهد الأفوه الأودي... فهل تستطيعون بمئة مقولة غير معقولة كهذه التي سميتموها قصيدة أن تمحوا من نفوس الناس معنى للشعر بقي فيها أكثر من ألف وسبعمئة سنة؟ إني أكرم عقولكم وأنتم لاشك من أصحاب العقول، عن أن أظن بها هذا الظن، وإني لأحسب أنكم لا تنشرون هذا الكلام الذي يشبه كلام المريض حين يصحو من البنج بعد العملية، أو المخمور الذي تتقاذفه الجدران، أو الذي أدمن المخدرات.

أنا أعلم أنكم لا تنشرونه إلا من باب الطرفة والنكتة، ولا ضير في هذا، فمن حق الناس علينا أن نسرّهم... والإضحاك فنٌّ من الفنون، فأنا أجد في كثير من هذا الأدب الجديد نوعاً من مسرحيات إسماعيل ياسين أو عادل إمام...

إني أتابع قراءة المجلّة فهل تصدقون أني لم أجد إلى الآن في قسم الأدب شيئاً يمكن أن يقال له أدب، إلا شيئاً قليلاً يأتي بعد حين وحين. فهل مات البلغاء، ولم يبق ممن ينشر له ما يكتب إلا هؤلاء الذين تنشر مقالاتهم و(أشعارهم)؟

أقول قولي هذا وأستغفر اللّه العظيم إن كنت أسأت فيه إلى أحد، وما أظن أنهم ينشرونه، فإن نشروه كان ذلك دليلاً على أن مؤسسة (آل حافظ) الصحفية مؤسسة تقدر الحريّة، حريتي أنا في أن أقول وقد قلتُ، وحريّة من يشاء أن يقول عني ما يشاء»[1].

وقد أردت أن أُقدّم أنموذجاً حيًّا لنقده الجريء الذي يكشف فيه تمام الكشف عن رؤيته الفكرية وموقفه الأدبي. ولا يملك القارئ إزاء هذه الصراحة – وإن اختلف معها – إلا الاحترام، لأنها صدق لم يحجبه خيار الصمت المسالم أو

---

(١) السابق: ٨/٢٩٩–٣٠١.

التعبير المداهن، لاسيما حين تتجه صراحته إلى ما هو أبعد من ذلك أعني انتقاد المفاهيم الاجتماعية المغلوطة في المجتمع أو التي يراها الكاتب مغلوطة، حتى ولو كانت تمس جوانب شرعية أو مذهبية. كقوله وهو في بيئة سلفية ملتزمة:

«صرت سلفيًّا – أو كما يقولون عندنا في الشام وهابيًّا– ولكني كنت أقف في أشياء هي عندهم من المسلمات وأراها من المشكلات»[1].

ومنه إنكاره على الملأ لتلبس الجني بالإنسي وهذا مخالفة صريحة للعلماء الأجلاء في المملكة الذين يكاد ينعقد إجماعهم على القول بخلاف ما ذهب إليه الطنطاوي.

«لا يؤمن المسلم بالنفع والضرر إلا من اللَّه أو بالأسباب والقوانين الواضحة التي وضعها اللَّه لهذا الوجود. وقد بين اللَّه في القرآن الكريم بياناً شافياً أن الجن أو كفّار الجن الذين هم الشياطين، لا يملكون إلا الوسوسة؛ ففي صريح القرآن أنه إذا كان يوم المحاكمة الكبرى أمام رب العالمين يقول الشيطان للكافرين: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ والله يقول: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ فالشيطان لا يعلم الغيب ولا يملك النفع ولا الضرر وليس عنده إلا الوسواس... أما أن تتكلّم المرأة بصوت الرجل، فيكون هذا دليلاً على أن رجلاً خفيًّا من غير الإنس يتكلم بلسانها، فهذا كلام إذا قيل على أنّه نكتة لطيفة فهو مقبول، وإن قيل على أنّه جدّ فيكون الممثل عبدالعزيز الهزّاع قد دخل فيه عشرون جنيًّا؛ لأنّه يؤلف رواية كاملة ينطق فيها الرجل بصوته، وتنطق فيها المرأة بصوتها، ويتكلم فيها الصبي بصوته، وكل ذلك يخرج من فمه»[2].

إن الجرأة هنا لا تتمثل في الاختلاف الفقهي؛ فإن الفقهاء قد يختلفون بحسب نظرهم للدليل وفقههم إياه، وبحسب ما يصلهم من النصوص الشرعية المخصِّصَة أو

---

(١) السابق: ١٢٩/٥. للوقوف على نماذج أخرى، يُراجع: رأيه في الحجاب الشرعي وفرش المسجد بفاخر الأثاث، ينظر: السابق: ٨٢/٣–٨٣ و٢٢٥/٧–٢٢٦.

(٢) السابق: ٣٥١/٨.

الناسخة أو المفصّلة... الخ، وإنما تتمثل في الجهر الواضح بهذا الخلاف، وباستخدام لغةٍ، يمكن أن يقال فيها: إنها لغة استفزازية لا تصلح لأن تطرح بها مثل هذه القضايا الفقهية الجادّة.

غير أن الباحث لا ينكر أن الطنطاوي قد عبّر عما يريد بما يريد من الألفاظ، كما جاشت المعاني في نفسه، وهذا مشهد من مشاهد التعبير الصريح عن المعنى دون مجاملة، وهذا طبع الطنطاوي لا يستطيع منه خلاصاً ولو وسعت نفسه الجميع بمحبته وصفائه وعاطفته الأبوية التي لا يعرفها حق معرفتها إلا من جالسه واقترب منه. ولا أحسب الداعي إلى الإقبال على مثل تلك الجوانب الحساسة، والتصدي لوصفها ونقدها ناجماً عن صلف أو غرور أو تكبر، والذي يغلب على ظني أنه حب الإصلاح، وحريٌّ بكل مصلح أن يكون كالطبيب يفتش عن مواطن الدّاء في الجسد الصحيح ويصف له العلاج:

«أنا هنا كالطبيب الذي يعالج المريض، إن جامله وأرضاه فكتم عنه مرضه يكون قد خانه، بل لا بُدّ أن نبيِّن المرض لنجد له الدّواء»[(١)].

ولذلك لم يكن رقيقاً ولا رفيقاً مع أصحابه وخلصائه حين يقع على ما يستدعي توجيههم أو نصحهم أو الحكم عليهم[(٢)].

ولعل تلك الجرأة المتناهية أحياناً كانت هي السبب وراء اعتذار الناشر عن نشر بعض حلقات من ذكرياته، ولدى الباحث صورة عن حلقة منها بعنوان (جواب مفتوح على كتاب مفتوح)[(٣)].

---

(١) السابق: ٨/٤٤.

(٢) ينظر: السابق: ٨/١٤٥.

(٣) حصل عليها الباحث من الأستاذ نادر بن تيسير حتاحت ضمن مجموعة من الوثائق والمقالات. وللوقوف على نماذج أخرى للجرأة في النقد والتعبير، ينظر: الذكريات: ١/٧٥، ١٣٣، ١٧٥، ١٧٩–١٨٠، ١٨٧، ١٩٠، ٢٤٤ و٢/٨١، ١٢٠، ١١١–١١٢، ١٣٩–١٤٠، ١٧٩، ١٨١–١٨٣، ٢٥٩، ٢٦٩–٢٧٠، ٢٧٤، ٣١٨ و٥/٤٣، ٧٥–٧٧، ١٠٤ و٦/١٩٨ و٧/١٧ و٨/٣٠٣–٣٠٥ (في بعض النماذج تصوير صادق لحالته الاجتماعية والاقتصادية مما يستنكف كثير من الأدباء عن تصويرها حتى لا تجرح صورتهم التي عرفها الناس عنهم بعد أن ابتسمت لهم الحياة، وزال عنهم ماكانوا يكابدونه من العوز والحاجة، وفي =

٧. إبراز الجوانب المضيئة والمتميزة في الشخصية:

يخطئ الذين يقيسون الصدق بمقدار ما يكون في السِّير من إبراز للمثالب والعيوب وينتصرون لذلك، وليتهم حين يفعلون لا يتحاملون على من يتحدث عن نفسه بحريّة وصدق؛ فيشيد بها ويذكر سبقها وما حققته من إنجاز، وما قهرت من عقبات، وأولئك أحق الناس بأن يوصفوا بالظلم والتعدي؛ وإن حسبوا أنهم مصلحون منصفون.

ذلك أن الإنسان ليس معايب ولامثالب فحسب، كما أنه ليس محاسن ومحامد فحسب بل مزيج معقد من هذا وذاك. فمن الناس من تغلب عَليه صفات الحسن والجمال فيُعَدّ خَيِّراً، ومنهم من تغلب عليه صفات النقص والمساوئ فيعد شريراً.

ولا ينبغي أن يَفُوت قارئ السيرة الذاتية أو ما شاكلها أنّه يتعامل مع نص أدبي، والأدب شيء ينبع من الذات وإليها يعود، فكيف إذا كان هذا الأدب يبحث في الذّات، ويسعى إلى التوغل فيها واستكشافها، ووصف معالمها للقارئ الذي قد تفصله عن الكاتب مسافة زمانية ومكانية واسعة، ولكنّه يشاركه في إنسانيته؟.

لاريب أنّه سيكون ألصق وأقرب، وأحفل بها، فإذا ما كانت الشخصية على جانب من التميز والبروز في أي ميدان من الميادين كما يشترط بعض الدارسين فيمن يترجم لنفسه، [1] فلابد أن تكون السمات الإيجابية التي هي مادّة النبوغ والتميز أكثر من الجوانب السلبية – على الأقل في تقديرها هي – بل إن أكثر السلبيات تستحيل بعد أن تُحقق الشخصية منزلة مرموقة إلى دائرة الإيجابية، لاسيما حين تكون حافزاً للعمل على تطوير الذات والكفاح.

ولهذا يشعر القارئ بالصفات الإيجابية ترجح بكفة الصفات السلبية، ويذهب

=

بعضها وصف صادق لحياة أمّه وعلاقته بعميه وأخيه سعيد وغير ذلك مما يدخل ضمن القدرة على الجهر بالنقد والتصريح بالتعبير).

(١) ينظر مثلاً: د. هاني العمد: دراسات في كتب التراجم والسير: ٤٨ ود. سامية أسعد: أدب السيرة الذّاتية: ٧٤ (مقالة – مجلة الفيصل) وثروت أباظة: لقاء معه أجراه: عنتر مخيمر: مجلة الأدب الإسلامي: ١٥.

به الظن السيء إلى أن الكاتب يُزيِّف نفسه أو (يلمعها) لتبدو برّاقة المظهر فيخدع بها أو عنها الناس، والحقيقة خلاف ما يعتقد.

على أن فنون البحث عن الذات، لاسيما السيرة الذاتية التي هي أنضجها وأوعبها للحياة – يجب أن تكون صورة عن الإنسانية ليس في مثالبها دون محامدها أو العكس، وقصرها على واحد من الجانبين خداع وكذب، والصدق في تصويرها لكل ذلك كما جرت به سنة الحياة، وعرفه الواقع بلا تكلف أو تزيد.

أما ما درج عليه الناس – لاسيما في المجتمعات المحافظة – من كراهة قول (أنا)، والتعوّذ منها بعد نُطقها وكأنها منكر أو شرّ مستطير فضلاً عن تعداد محاسنها أو كشف خبيئاتها، فأمر لا يملك له الباحث تعليلاً واضحاً، إذ ليست كل (أنا) كـ (أنا) إبليس الذي خدعته نفسه وغرّه حلم ربّه فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[1]، وليس كل (أنا) مفضية إلى الغرور المميت، بل إن هنالك (أنا) خيرة فاضلة، تُحق الحق، وتتواضع للعباد. وهذا النوع من (الأنا) الذي يشعر بذاته فلا يذوب في المشاهدات والأشخاص هو المطلوب، لأنه لا يغمط الناس حقوقهم، ولا ينسى نفسه بينهم.

وهذا التصور كان ماثلاً في ذهن الكاتب قبل أن يبدأ في تسجيل ذكرياته مما انعكس إيجاباً على وضوح الرؤية لديه؛ فأكد منذ الحلقة الأولى أن الحديث عن النفس (أنا) أمر لا مهرب منه مادام يكتب سيرته ويُدَوِّن ذكرياته وعلى القارئ أن يوطن نفسه على ذلك:

«عفواً فأنا لا أمدح نفسي. وأنا أعلم أن الحديث عن النفس ثقيل على السمع، وكلمة (أنا) ليست من الكلمات المستساغات، ولكن ماذا أصنع وأنا أدون ذكريات

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة ص.

موضوعها (أنا) فإن لم أتكلّم عن نفسي في سرد ذكرياتي؛ فعمن تريدون أن أتكلم؟!»[١].

ويرى أن الإمساك عن الحديث عما أفضل اللّه به عليه وأنعم، أو نفيه عن نفسه جحودٌ ونكرانٌ لجميل عطاء المولى تبارك وتعالى، ولذلك يصف التواضع الذي يُضيع على الفرد مكانته ومنزلته ويخفي تميزه بالسخف، يقول في ضرب من الإنكار والتَّعجب:

«أأُنكر نعمة ربي وقد أمرني أن أحدّث بها؟!!

أليس في هذا التواضع السخيف جحود لما أكرمني به ربي؟!! اللهم إني معترف بفضلك، مؤمن بأن القوّة منك، لاحول ولاقوّة إلا بك، فأدم علي نعمتك وارزقني الشكر عليها»[٢].

ولا ينسى الطنطاوي أن يقدم لنا المعيار الدقيق في هذا الصدد الذي يُطَمْئن القارئ إلى وعي الكاتب وحرصه، يقول:

«أنا لا أتواضع حتى أسلب نفسي حقها، ولا أستكبر حتى أدعي ما ليس فيها»[٣].

هذا هو منطوق عبارته أما مفهومها فهو (الصدق)، لأن التوسط بين الاتجاهين والموازنة بين الرغبتين هما عين الصدق. ولاعجب مادام الكاتب قد تكاملت له أسباب التصور الواضح والدقيق أن ينعكس ذلك الوضوح في العنصر التطبيقي أيضاً، فما كان يتردد في أن يذكر ما تتبوَّأهُ شخصيته من منزلة على مستوى الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية، وما حققته من سبق وانفراد، وما نالته من مكاسب تسجل لها خصوصاً أو لأمتها عموماً. ويكفي القارئ أن يراجع أي موضع في الذكريات ويمضي في قراءته فإنّه لاشك واجدٌ شيئاً من ذلك:

---

(١) الذكريات: ١١/١.

(٢) السابق: ٣٩/٢.

(٣) السابق: ١١٠/٧.

«... أنا لم آتِ (الرسالة) مبتدئاً، بل لقد كنتُ لما جئتها كاتباً معروفاً في بلدي، نشرت مئاتٍ (مئات حقاً لامبالغة) من المقالات في السياسة، وفي الحماسة، وفي النقد وفي القصص التاريخي، وفي المناظرات وحتى في المسرح.

ولست أنكر فضلها عليّ، ولكن لا أحب أن أبخس نفسي حقها، فإذا عُدَّ من تخرج في الرسالة أي من بدأ منها وفيها، فلستُ منهم، وإن كان للرسالة ولصاحبها أكبر الفضل علي، فقد فتح لي صدره، واتخذني أخاً وولداً له، واتخذته أستاذاً ووالداً أو أخاً كبيراً...

ما كنتُ أول من نشر في الرسالة من أدباء الشباب في الشام، لقد كتب فيها قبلي من إخواننا: سامي الدهان، أنور العطار، حلمي اللحام، جميل سلطان – رحمهم اللّه – وأخي ناجي نشر فيها قبلي ترجمة شعريّة لقصيدة الشاعر الفرنسي (أندره شينيه) عنوانها (اللقاء العجيب)، وخليل هنداوي.

ولا تؤاخذوني إن ذكرت حقيقة فيها مدح لنفسي، فأنا أعلم أن أثقل كلام على أذن السامع ما فيه ثناء من المتكلم على نفسه، ولكنني أُسجل حقائق مكتوبة منشورة من طلبها وجدها، لا أخترعها ولا أدعيها.

ذلك أن الزيات رحمه اللّه بأستاذيته وخبرته، كان يجعل لمن يكتب في الرسالة درجات، فمنهم من ينشر اسمه مجرداً بلا لقب، ومن يلقبه بالأديب، ومن يقول عنه الأستاذ، وكل الذين نشروا قبلي في الرسالة كتب أسماءَهم مجرّدة، إلا أنور العطار لقبه حيناً بشاعر الشباب السوري، ثم أعاده إلى الاسم المجرّد. وأنا كتب عني (ولا مؤاخذة) من أول يوم (للأستاذ فلان)، وكان يضع مقالتي بعد الطبقة الأولى من الكتاب الكبار مباشرة، وأول من أخذ من الرسالة مكافأة مالية على مقالاته بعد الرافعي والعقاد وطه حسين وأمثالهم هو كاتب هذه الذكريات»[1].

والنص السابق – على الرغم من عفويته المتناهية – يدلل على مبدأ التوازن في الحديث عن الذات أو الوسطية بين إنكار الحق والادعاء. فالكاتب يثبت اتصاله

---

(١) السابق: ٣/٣١–٣٢ وهو مقتطع من الحلقة (٦٧) تعرض فيها لمرحلة خصبة من حياته، وهي اتصاله (بالرسالة) وظهور أول مقالة له في العدد (٢٢) يوم ١٦ شعبان – ١٣٥٢هـ/١٩٣٣م وما عقب به الزيات وأحمد أمين عليها فكانت بداية قوية وقد استشهد ببعض النصوص في ذلك.

المبكر بـ (الرسالة) ولكنّه ينفي أن يكون أول من اتصل بها ونشر فيها من الشباب السوريين. ثم اعترف بفضل الرسالة في التعريف به، ونشر مقالاته بإزاء كتاب كبار من أمثال الرافعي والعقاد وطه حسين، واعترف أيضاً بحق صاحبها الزيات ومنزلته وبعظيم أثره في نفسه. ولكنّه في مقابل ذلك يؤكد أنّه لما جاء (الرسالة) لم يكن كاتباً مغموراً بل كان كاتباً معروفاً في بلده نشر المئات من المقالات في السياسة والحماسة وفي النقد والقصص التاريخي والمناظرات والمسرح. وبَيَّن أن الزيات كان يحتفي بمقالاته ويضعها في الطبقة الأولى بعد مقالات كبار الكاتبين، وأنّه من أوّل من أخذ مكافأة مالية، ولكنه بمقابل ذلك يذكر ما له من صلة شخصية خاصة تربطه بالأستاذ الزيات ليست لأحد ممن يكتبون في الرسالة. ولقد وازن الكاتب – في نظري – تمام الموازنة بين ما له وما عليه – أو بتعبير أصلح – ما لغيره. ولو حاول القارئ ردّ بعضها لاختلّ بناء الحقيقة، فهي أقرب ما تكون إلى ثقلين متساويين على كفتي ميزان لقياس الحقيقة أحدهما يحفظ للذات حقها، وفي الآخر حقوق الآخرين:

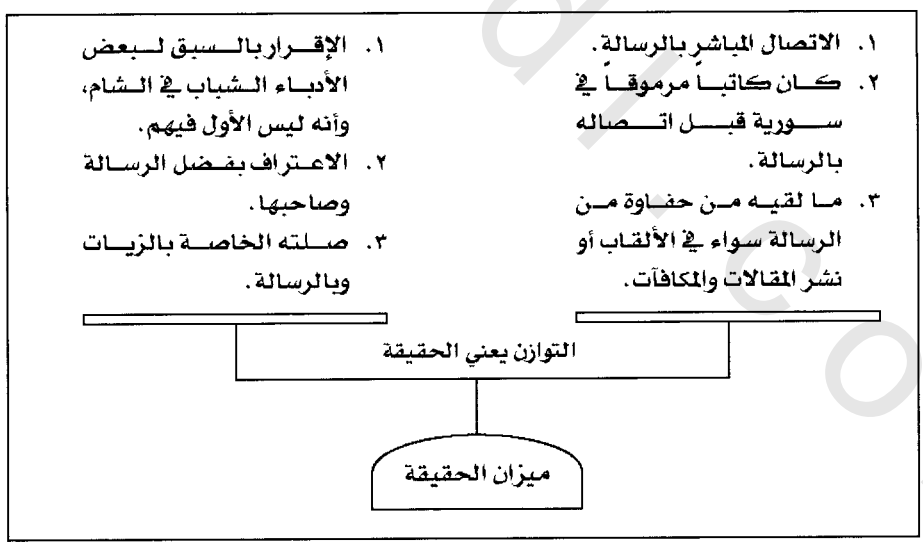

الشكل (١): يوضح فكرة التوازن في الحديث عن الذات

والشواهد أكثر من أن تحصى، ولا يعجز القارئ عن إدراك هذا الملمح إذا هو راجع الذكريات بنفسه، فإن الفكرة من البروز والوضوح بحيث لا تخفى على فطنته[1].

أما الطريقة التي يسلكها في تسجيل ما له من الإيجابيات، فمتنوعة فتارة يستعمل الأسلوب المباشر كما مضى، وتارة يترك للآخرين الحديث عن ذاته، ويقف في دور الوسيط، وهذه الطريقة تدفع عنه الحرج قليلاً، وتشعر القارئ بأن الكاتب مكره على سماع أو قراءة ما قيل عنه. وللحق فإن الكاتب لا يفعل ذلك إلا في مواضع قليلة، ولاسيما حينما يشكك بعض القرّاء فيما يحكيه عن نفسه كما فعل في الجزء الثاني، فقد اتهمه أحد القرّاء بأنه: مُدع ينسب إلى نفسه في السن التي يدخل فيها الشباب إلى الجامعة من القدرة على الكتابة، والإقدام على التأليف، وذيوع الاسم في النّاس، والتأثير في الشباب ما لا يمكن أن يكون. فكتب يقول:

«أنا بشر له نقائص، وفيّ عيوب، وعيوبي كثيرة لكن الكذب ليس منها، إنما يكذب الجبان، وأنا (متهم) في مطلع الشباب بالجرأة والإقدام، وأني طويل اللسان صامد الجنان، وأني إن هجمت لم أُبال العواقب، ومن كانت له هذه النقائص لا يمكن أن يجمع معها نقيصة الكذب، لأنها تناقضها وتنافيها ولا تجامعها. ولو أني كنت احتفظ بالصحف والمجلاّت التي نشرت أخبار نشاطي قبل نصف قرن وما كتب فيها عني يومئذٍ، عليّ أو لي، لجاء منها ما يملأ كتاباً يبلغ ربع القاموس المحيط، وهذا كلام أقوله أول مرّة، وأرجو أن تكون آخر مرّة، لأني أحاول أن أكون في هذه الذكريات مؤرخاً، لا شاعراً مفاخراً ومنافراً في عكاظ أو في المربد. والذي أقوله رطل من قنطار مما قيل فيّ أو كتب عنّي، وعندي منه الكثير في قصاصات وأنا أخجل أن أروي الثناء عليّ بلساني أو أن أخطه بقلمي، ولكني ظلمتُ فحق لي الدفاع عن نفسي. لذلك أتخلى اليوم عن خجلي، وأنقل كلمة واحدةً تؤيد قولي الذي كذّبني فيه هذا (الأخ المهذّب...) مرسل الرسالة.. كلمة لم تأتني مطويّة في ظرف فنشرتها أنا هنا، فهذا عمل تأباه مروءة ذوي

---

(١) أحيله أيضاً إلى نماذج أخرى إذا أحب الاستزادة، ينظر: السابق: ١١/١، ١٩٨ و٢٢٥/٢ و٢٣٧/٣ و٣١/٥–٣٣ و١١٠/٧ و٢١٠/٨.

المروءات، بل جاءت منشورة في مجلة كانت لها الصدارة بين المجلات، لكاتب كانت له الصدارة بين الكتاب، هي شهادة من الزيات، ما حظي بمثلها منه إلا قليل — رحمه اللّه — لم تكتب عني اليوم وقد ازددت — بلا شك — اطلاعاً وتمرّساً بالحياة، وصلة بالأدب، وإلفاً للمنابر، ولكن كتبت في العدد (الأوّل) من مجلة الرسالة الصادرة في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة ١٣٥٤هـ أي قبل خمسين سنة، وثقوا أني أستشعر أشد الحرج وأنا أنقل هذا الكلام ولكني اضطررت، قال:

(الأستاذ علي الطنطاوي أو الشيخ علي الطنطاوي كما يحب أن يدعى، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة، ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة، ثم درس القانون دراسة فقهيّة عميقة. وشارك في إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية في سوريا مشاركة منتجة، فله في قيادة الشباب محل، وفي توجيه الآداب طريقة، وفي سياسة الإصلاح مذهب، وهو ونفر من صحابته يمثلون في سوريّا الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم وعقلية تنكر الجديد.

وليس الأستاذ الطنطاوي مجهولاً لدى قرّاء الرسالة فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة في الأدب والتاريخ والقصص، ينقلها عن فكر خصب، واطلاع واسع، ومنطق سليم، وإيمان صادق، وعاطفة نبيلة...).

والكلمة طويلة... وما دمتُ أكتب تاريخاً، لا أتنكب فيه إن شاء اللّه، جادّة الصدق، فإني أقول: إن الزيات — رحمه اللّه ما كذب ولا بالغ...»[1].

وقبل محاكمة النص يجب أن نتذكر أن الكاتب يكتب هذا الكلام في حلقة / كتاب بعنوان (ذكريات علي الطنطاوي) ولا يؤلف علماً أو معرفة، بل يدون أشياء من (الأنا)، فينبغي ألا نتثاقل ذلك أو نراه مخالفاً للذوق. ومن جهة ثانية فإن الكاتب يدفع هنا عن نفسه الاتهام، وذلك حق مشروع. ولقد كان بوسعه أن يطوي الرسالة فلا يشعر بها أحد، ولكنه خشي أن يكون ما جاء فيها هو ظن جماعة رأيهم فيه مثل رأي مرسلها[2].

---

(١) السابق: ٢/٥٤–٥٥ وللوقوف على نماذج أخرى، يُنظر: ٥/١٠٨–١١٢.

(٢) ينظر: السابق: ٢/٥٤.

وقد يحتال الطنطاوي ليذكر عن نفسه شيئاً ذا بال مما يمكن وصفه بالثناء أو المدح بألفاظ موهمة بعدم القول، والواقع أنه قد قال ما يريد، مثل: «**لولا الخجل لقلت كذا...**»[١] و«**لولا الحياء لقلت...**»[٢] أو بألفاظ أخرى تخفف من وطأة الثناء على النفس في نفس القارئ كألفاظ الاعتذار أو التحرج والإكراه مثل: «**وفضيلة التواضع لا تمنعني من أن أقول...**»[٣] و«**أنا أخجل من أن أقول كذا**»[٤]، أو «**ولا مؤاخذة – ولا تؤاخذوني – عفواً – أعتذر**»[٥]، أو بإجراء الكلام مجرى الشكر للّه بالتحدث بنعمه والاعتراف بفضله[٦].

وللطنطاوي أساليب متعددة في تأكيد ما يورد من أخبار وقصص وأحداث: منها ما يُلمح من فحوى الكلام، ومنهجه في سرد الحوادث، وتمييزه بين ما يسمعه وما يقف عليه بنفسه، وبتشكيكه فيما يرويه أحياناً[٧]، وبحرصه على أن يكون منصفاً عادلاً[٨]، وكل ذلك مما يقوي من شعور القارئ بأهمية الصدق وقيمته عند الكاتب، ويؤكد له حرصه عليه.

ومنها: ما هو ظاهر بارز كتأكيد على الصدق بالأساليب اللغوية كالقسم[٩]، وباستعمال ألفاظ أخرى تُغْري القارئ بتقبل ما يقول: مثل «**صدقوني – أقول الحق – الحق يقال – حقيقة – بلا تزيد – بلا مبالغة**»[١٠] أو بالتحذير من التكذيب بما يقول[١].

---

(١) ينظر: السابق: ٥/٥٦.

(٢) ينظر: السابق: ٨/٢٧٠، ٢٩٤.

(٣) ينظر: السابق: ٥/٣١–٣٣.

(٤) ينظر: السابق: ٢/٥٤ و٣/٢٣٧.

(٥) ينظر: السابق: ٣/٣٢ و٥/١٠٩، ١١٠، ١١٢.

(٦) ينظر: السابق: ١/١٥٣، ١٥٤، ١٨٣، ١٨٤، ٢٧٩ و٢/٢٠٩ و٦/٢٧٩.

(٧) عرض الباحث لذلك عند حديثه عن (الأمانة) بصفتها صورة من صور الصدق، فليراجع المبحث.

(٨) يراجع مبحث: (الإنصاف والعدل) وقد مرّ قبل قليل.

(٩) ينظر الذكريات: ١/٣٠، ٣٢، ٩٧ و٢/٣٩، ١٣١ و٣/١٣٦، ١٧٢، ١٧٣، ٢١١ و٤/٤٤، ١٣٦ و٥/١٠٧–و١٠٧/٥–١٠٨، ٢٦٨ و٦/٥٨، ٦١، ١١٧، ٢٤٣، ٧/٢٥٩.

(١٠) ينظر: السابق: ١/٢١، ٧٠، ٧٥، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٦٢، ٢١٠، ٢٤٤ و٢/٤٥ و٣/٢٠٧، ٢١٢ و٤/٥٢، =

ومنها ما يكون بواسطة شيء خارج النص، كالإحالة إلى الشهود الذين عاصروا الموقف وخبروه، وقد فعل ذلك في أكثر من موضع[٢].

وبعد، فإن إشعار الكاتبِ القارئَ، بأنه حريص على الصدق، منصفٌ، أمينٌ في سرد تفاصيل الوقائع، والكشف عن ذاته، أمر على درجة كبيرة من الأهمية والخطورة أيضاً، وبخاصة في تلك الأشكال الأدبية التي تنتمي إلى أدب البحث عن الذّات. تؤكد ذلك الوظيفة والغاية الأساسية لتلك الأنواع الأدبية، وهي معرفة الإنسان في أبعاده النفسية والعقلية والاجتماعية والعقدية والفكريّة... عبر بوابة الذّات (الأنا).

ولن تتحقق المعرفة على المستوى المطلوب إلا بالصدق، والتجرد من نوازع الخوف والحياء والمداراة. هذا بالإضافة إلى ما يخلعهُ الصدق بصفته قيمة أدبية / تشويقية: على العمل من إغراء يجذب المتلقي ويشدّ إليه اهتمامه، ويعوضه كثيراً مما قد يفتقده من عناصر جمالية وفنية، تمتاز بها الأعمال (الروائية / القصصية) الأكثر حريّة في التشكيل والبناء ونسج العَلاقات. بل إن كُتَّاب الرواية والقصة باتوا يحرصون على إضفاء مسحة الواقعية على أعمالهم، ويحتالون لإيهام المتابع والمتلقي به بشتى الوسائل والتقنيات الفنية المتاحة لهم – وما أكثرها وأخصبها – كـ: توظيف عناصر: الزمان، والمكان، واللهجة، والشخصيات، ونوعية الصراع وطبقته، والأحداث، وحتى طريقة السرد نفسه (سرد السيرة الذاتية الموهم بأن الضمير يعود إلى الكاتب في الرواية أو القصة) وما ذاك إلا ليكون الإيهام بالواقع (طُعْماً) أو كالطُّعم يتصيد به الكاتب الخبير رغبات القرّاء فيقبلون على أعماله ويتفاعلون بها ومعها، ويحس كل فرد منهم أنه فرد من أفرادها يتقلب بين أزمنتها وأمكنتها وتؤثر فيه أحداثها ووقائعها.

=

٥٣، ٩٨ و٥/١٠٧ و٦/١٥٨.

(١) ينظر: السابق: ٧/٤١.

(٢) ينظر: السابق: ٢/٣٩ و٤/٧٩ و٦/٢٤ و٧/٣٥ و٨/٢٧٠.

وذلك مكفولٌ سلفاً لكاتب السيرة الذاتية وما شاكلها؛ فإحساس القارئ قويٌّ جدّاً بأن ما يقرؤه من قبيل الحقيقة المحضة، ويبقى موقف الكاتب من ذلك الشعور هو الفيصل الحقيقي، وأحسب الطنطاوي قد فطن إلى أهمية الصدق في كتابه، ودعا إليه نظريًّا والتزمه تطبيقيًّا إلى حدّ بعيد.

obeikandl.com